الكتاب: الإمام الصادق (ع) ، علم وعقيدة
المؤلف: رمضان لاوند
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر سيرة النبي والائمة
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان
ردمك:
ملاحظات: نقد ودراسة : رمضان لاوند

الإمام الصادق
علم وعقيدة
نقد ودراسة
رمضان لاوند
منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

هذا الكتاب

أصبحت المؤلفات الأدبية التي تتناول سير الأعلام في عصرنا هذا، تستأثر بقدر عظيم من اهتمام الباحثين والأدباء والمؤرخين. إن هذا المؤلف الذي يتضمن سيرة إمام كريم من أهل البيت، وحفيد النبي العربي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسادس أئمة الشيعة، مضافا إلى ما سبقه من كتب السيرة، يكون حلقة من سلسلة طويلة عزمت دار مكتبة الحياة على إخراجها تثقيفا للناشئة وتعريفا لها بالمواطن المجيدة للتاريخ الإسلامي.

وإننا إذ نهدي هذا الكتاب إلى القارئ العربي، نرى لزاما علينا أن نعد بمتابعة إصدار أجزاء أخرى من هذه السلسلة واتباع " سيرة الإمام جعفر الصادق " بسير أخرى لكبار رجال الإسلام.

والله ولي التوفيق...

الناشر

- المدخل -

كنت أحب أن أتحدث فأطيل الحديث، عن كل رجل كان من تاريخ العروبة والإسلام، كما تكون الصوى في المتاهة الكبيرة. يهتدي بها الضائعون، ويستنير بها العمي. فليس أحب إلى قلبي من أن أتأمل وأطيل التأمل فيما وهبه الله للأفذاذ من خلقه. وفيما وضع في نفوسهم وعقولهم من زخم الفكر وسمو الشعور وطهارة النفس واستقامة الخلق.

ليست دراسة التاريخ فيما أعرف، تحقيقا في صحة الحوادث، وربطا بين متفرقاتها، وجمعا لشتاتها فقط. بل هي في رأيي موطن للتعرف إلى إنسانية الإنسان، والغوص على أعماقها، واكتشاف ما تنطوي عليه هذه الإنسانية من سمو واستعداد للتضحية وإيثار للبساطة والحق والخير والجمال.

فدراسة التاريخ إذن، موضوع يستهدف صاحبه استخراج العبرة، وصوغ الموعظة، وتزويد المستقبل بما يحتاج إليه من هذه الثروة المكنوزة في نفوس عمالقة التاريخ.

وقد اهتدى الإنسان الواعي إلى هذه الحقيقة، منذ فجر تاريخه. بل

أكاد أقول، إن الرأي العام القومي كله، قد اهتدى في كل أمة إلى
هذه الحقيقة.
أما أن الرأي العام القومي للأمم قد اهتدى إليها، فليس أدل عليه
من أن نستعرض تاريخ جاهلية العرب قبيل الإسلام، أو تاريخ جاهلية
كل أمة، فيقابلنا ركام لا يكاد ينقطع مدده من مفاخر كل أمة من هذه
الأمم وأمجادها. وقد تختلف القضايا التي تتمجد بها الأمم ولكنها تشترك
كلها في كونها موضوعا لعمل عظيم، عمل فائق الأثر، بالغ الفعالية،
يحمل إلى الأبناء والأحفاد صورا جميلة رائعة لعظماء الأمة ورجالها الكبار.
وقد تكون هذه الأمجاد ممتزجة بالأساطير. بل قد تكون كلها مجموعة
من الأساطير فليس المقصود من روايتها الوصول إلى الحقيقة الموضوعية
كما يفهمها علماء المنهج الديكارتي اليوم، بل الغاية الوحيدة من تكرارها،
مرتلة أو ملحنة أو منقولة على شكل قصص خلابة، هي تزويد المواطن
الجديد بالمثل العليا التي تجسمت في أخلاق رجال ونساء عاشوا في الماضي،
يرغب الضمير القومي مخلصا أن تتجسم في أخلاق الرجال والنساء في
مستقبل الأيام. فإذا كانت هذه المثل قد تجسمت حقا في أخلاق الرجال والنساء
من الأوائل فهي موضوع التاريخ. وإذا كانت موضوعا لرغبة كامنة في
الضمير القومي تعمل على تجسيمها حية في أخلاق الرجال والنساء في مستقبل
الأيام، فهي الأساطير.
إن الأسطورة هي التاريخ الغريزي للأمة البدائية التي لم تصنع تاريخها
الموضوعي بعد، التاريخ الذي تبنيه بدماء أبنائها وعرق جباههم. تصنعه
ببطء وبطولة وصبر فائق. تلمع، وتنظف، وتعد بعناية زائدة،
كل جدار من جدرانه، بل كل مدماك، ولا أبالغ إن قلت، كل
حجر. وكلما بعد الزمن برز البناء التاريخي من خلال لوحة الغسق

القرمزي عند الغروب، أو أشباح الليل الغامضة، أو شعاعات الفجر الزاهية، أو أنوار النهار الساطعة، برز هذا البناء، وقد انبعثت منه أروع الحوافز وأقدس الذكريات.

وأما أن الإنسان الواعي قد اهتدى إلى هذه الحقيقة فليس أدل عليه من العناية البالغة التي يبذلها المربون في كل أمة، في إعداد المنهج التاريخي.

إن الطالب في مدرسته، لا يكاد يجد في كتب تاريخ قومه، غير سطور لامعة، وأمجاد رائعة، وعبقريات خصبة. إنه يجد في هذه الكتب أن أمته قد شاركت في كل إنتاج إنساني جميل. فلها جولات في كل علم، ولها فرائدها في كل فن، ولها خوالدها في كل بطولة. يتحول بها الدكتاتور مصلحا عظيما. ويصبح بها المجرم إنسانا كريما. تمحي بها النقاط السوداء وتستقيم بها الطرق المعوجة وتضاء بها الزوايا المظلمة الغامضة. فيخرج الطالب بعد سنين قليلة من دراساته وقد صيغت روحه صياغة تحقق للمربين أهدافهم. إنه يخرج وقد آمن أن أمته هي موطن الرسالات الخالدة، ومبعث للأعمال الأدبية الرائعة، وحنين لا يكاد ينضب معينه لجلائل الأعمال العلمية التي تقرب الإنسان من الحقيقة.

إنه يخرج وفي نفسه رغبة في الابقاء على روعة هذا التاريخ وجلاله. وفي قلبه شعلة تنير له الطريق إلى المستقبل الصاعد، وبين يديه الآلة التي يتابع بها رفع قواعد البناء التاريخي، فيضيف إلى مداميكه مدماكا، وإلى أحجاره حجارة صلبة شديدة.

وكان لأهمية التوجيه التاريخي مظهر آخر نجده عند هؤلاء المربين.

فكما أنهم جعلوا من التاريخ في أمتهم، سلاحا إيجابيا لحفز المواطن على الابداع والخلق العظيم، فقد جعلوا منه في غير أمتهم سلاحا سلبيا لقتل الحوافز النبيلة الطيبة في نفس المواطن الجديد.

العناية بالتاريخ في الوطن الأم قدس من أقداس الوطنية. ومحاولة تهديم التاريخ، وتشويهه، أو عزله عند الحاجة عن أبنائه في البلاد المستعمرة، قدس من أقداس الوطنية عند هذه الأمة بالذات. فإذا بالإدارة الاستعمارية كلها، بما تملكه من المال والخبراء والجنود ورجال الإدارة، بهؤلاء جميعا، تحاول أن تطفئ نور تاريخ الأمة التي تستعمرها. فإذا عجزت، عزلت هذا التاريخ عزلا شديدا دون رحمة أو شفقة. فيبقى أفراد الأمة المستعمرة وكأنهم في متاهة، يسيرون، ويسيرون، حتى يصيبهم الاعياء، فيسقطون يأسا وأسفا وألما.

وتاريخ الاستعمار الغربي في البلاد العربية شاهد على هذه الحقيقة.

ولعل استعراضنا لما كان يحدث خلال عهد الانتداب الفرنسي في لبنان يكون أقرب الأدلة على صحة ما نقول.

لقد كنت أنا شخصيا موضوعا لهذا التوجيه الاستعماري مع أفراد جيلي كلهم. لقد فرض علينا جميعا أن ندرس التاريخ الفرنسي باللغة الفرنسية معروضا علينا في أبهى حلله وأروع صوره وأجمل مغازيه. بينما كانت دراسة التاريخ العربي لا تتناول غير حوادث متفرقة سخيفة المعنى والمبنى. خالية من التشويق، بادية السطحية. وزاد الطين بلة أن التاريخ العربي مادة دراسية ثانوية هي في حاشية المنهاج الدراسي. فلا غرابة بعد ذلك أن يتنكر طلاب عرب لماضي أمتهم، لأنهم يجهلون هذا الماضي. ولا غرابة بعد ذلك في أن تنهار أعصاب

هؤلاء، وتتكون في نفوسهم روح التبعية وبعبارة أخرى، عقدة الشعور بالدونية.
بل الغريب أن تستيقظ النفوس بعد غفوتها، وتتحرك القلوب بعد ركودها، وتعمل العقول بعد سكونها.
وفي النموذج الاستعماري في الجزائر دلالة أخرى على هذه الحقيقة.
لقد اضطهد الجزائريون هناك. فسامهم الاستعمار من العذاب ألوانا. شحذ سلاحه، وأعد خبراءه، ونظم مؤامراته، وتحدى أقدس معاني الإنسانية. ثم أقبل على العزل من الناس، وفي نفسه سعار عجيب، وحقد مجرم غريب، يسمل العيون، ويشوه النفوس، ويهدم تراث الأمة، ويعبث بمقدساتها.
يكذب وينافق ويدجل. ثم يرجع إلى الكذب، لا يمل ولا يضعف مهما طال به الزمن. يقتل من يعجز عن شرائه بالمال. ويشوه من تحول الحوائل دون خضوعه لمغرياته. يمشي، وفي يمينه السيف، وفي يساره المال والنساء وسياسة التجهيل. فمن عجزت سياسة المال والنساء والتجهيل عن ترويضه، انقض السيف عليه يمحو أثره ويحطم منائره ويعفي من ذكره.
تفعل الإدارة الاستعمارية هذا كله لأنها تدرك خطورة أن ينبعث التاريخ حيا في نفوس أبناء البلد الذي تستعمره. إنها ملحمة النضال الأبدية بين غريزة التاريخ في شعب عظيم كالشعب الجزائري، وبين غريزة التدمير في نفوس من خانوا رسالتهم الحضارية، وانجرفوا عن خطوط إنسانيتهم، فضلوا، وأضلوا، وكان سعيهم سعيا غير مشكور.
بل لعلي لا أبالغ إذا قلت: إن التوجيه التاريخي، هو من أعظم الأسلحة التي توصل بها الإنسان لإبداع أمة عظيمة، أو القضاء على أمة وعزلها عن طريق الحياة.

لهذه الحقائق كلها. ولحقائق أخرى كثيرة أحب أن أتحدث فأطيل
الحديث عن كل رجل كان من تاريخ العروبة والإسلام كما تكون الصوى
في المتاهمة الكبيرة. " وهو حب لا أنفرد به من الناس. فقد بدأ
كثيرون من كتاب العربية يغوصون على جلائل تاريخ العروبة والإسلام.
يرفعون عنها غبار النسيان ويكشفونها للقارئ العربي بأسلوب شيق ودراسة
مستوفاة وإدراك عميق لروح هذه الأمة. فحيث يممنا وجوهنا نجد سيلا
من السير وتراجم الرجال وركاما من الأبحاث التاريخية المختلفة تستهدف
كلها الكشف عن مواطن العبقرية الخصبة في تاريخ العروبة والإسلام.
والحق أن القارئ العربي في تنافس مستمر مع الكاتب. هذا
يكتب، وذاك يقرأ. هذا يرود مجاهل التاريخ، وذاك يلحق به
مستمتعا بما يضعه بين يديه متذوقا أشد التذوق وأروعه مواطن الخير
والجمال والحق والعدل.
لقد أثبتت الأمة العربية خلال السنوات القليلة الماضية أنها ما تزال
منطوية على فيوض من الطاقة التي تحتاج إلى المجال الحيوي، وتشتاق
إلى التعبير عن ذاتها تعبيرا إيجابيا صحيحا.
لقد بدأت سير الرجال، كبار الرجال العرب والمسلمين، تنطلق عبر
السوق، وتنتصب شواهد على هذه الحقيقة منذ أواسط العقد الرابع من
قرننا هذا، ابتداء من طه حسين في أول ما أنتجه ومحمد حسنين هيكل
في كتابيه محمد " ص " وفي منزل الوحي. والرافعي في عشرات من
مقالاته التي نشرتها له مجلة الرسالة حتى أواسط العقد السادس في
أيامنا نحن.
ومع ذلك ففي المكتبة العربية الإسلامية مئات من الرجال لم يرفع عنهم

معد؟ غبار النسيان. وفي عبقرياتهم كل لون وكل اختصاص. بينهم الأديب والمهندس والفلكي والفيلسوف والقاضي والفقيه والأصولي وغيرهم ممن اشتركوا في رفع بناء الحضارة العربية الإسلامية. هؤلاء كلهم ينتظرون أن يأتي دورهم ليخرجوا إلى الوعي العربي، بالثوب القشيب، والأسلوب القريب، والعناية البالغة، والإخلاص الذي يجب أن يتوفر لكل محقق وباحث.

وكما أن الغرب قد بدأ موجته الحضارية الجديدة بإحياء التراث اليوناني اللاتيني، والكشف عن مواطن العبقرية والمعرفة الشاملة في بطون كتب هاتين الأمتين. وكما أن الأدب الغربي، والفلسفة الغربية، والعلم الغربي، قد جعلت من تراث اللاتين واليونان قاعدة لانطلاق موجتهم الحديثة. فكان أدب الخالدين من الغربيين إحياء لأساطير اليونان واللاتين وبطولاتهم بثوب حديث أضفى عليها جدة الحياة وماءها. وكانت فلسفة بناة الموجة الفكرية الجديدة ابتداء من ديكارت، وكانت علوم رواد الاختبار والتجربة ابتداء من كوبرنيكوس وغاليلو، تفاعلا مع فلسفة الأقدمين وعلومهم وتقويما لها أو ثورة عليها.

كما حدث هذا كله في الغرب، فإن شيئا من مثله قد بدأ يحدث في الشرق العربي. لقد بدأ الناس هنا يعيدون النظر في ماضيهم. بدأوا يرون في هذا الماضي قاعدة صالحة لعملية انطلاق جديدة. فلم يعد التاريخ العربي في نظرهم مدى زمنيا يحف به الضباب وتكتنفه من جوانبه الألغاز والأحجيات. بل هبت عليه من كل جانب ريح سافية، طردت الضباب ورفعت الألغاز، وأزالت الأحجيات، فبان ما تحتها ووراءها واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار. لقد وضحت رسالة الإنسان العربي إلى

العالم، وظهرت معالم الجدية في هذه الرسالة، وبدت بخيوط من نور، التضحيات الرائعة، والجهود الفائقة، التي بذلها رواد هذه الرسالة في مجاهل الأكوام والفوضى التي تركتها وراءها دولتا الأكاسرة الفرس والقياصرة الروم.
والبداية هذه التي ظهرت بوادرها عند عرب اليوم لن تقف في وسط الطريق، ولن تكون لها أنصاف حلول، ولن تهدي إلى الإنسانية مواليد مجهضة. إنها الحقيقة بكليتها تقلع فوق سفينة عربية لارتياد المجهول، ثم لا ترجع إلى الوراء، ولا تكف عن السير حتى تبلغ غايتها أو تغرق السفينة. والحقيقة لا تختار لنفسها سفينة منخرقة، أو نخرة، أو فاسدة، فهي تعرف أين تضع رسالتها وتحسن اختيار من يتحمل مسؤوليتها بطبيعة مكنونة فيها. وكما أن الله كما جاء في القرآن الكريم " أعلم حيث يجعل رسالته " ومن يختار من خلقه لتبليغ وحيه، فالحقيقة التي هي روح الله، تحسن الاختيار، وتصيب المحز.
ولعل القارئ العربي الكريم أن يفهم من قولي هذا أن رسالته لم تعد رسالة استمتاع وتذوق يستوعبها وهو في مجلس من مجالس الاستجمام. كما كان شأنه خلال قرون خلت بل هي:
رسالة التفوق على الذات
رسالة العمل المستمر
رسالة التضحية الدائمة
رسالة الكشف عن الحقائق الكامنة
رسالة الإنسان في أكمل معانيه الإنسانية
رسالة الإنسان في حقيقة الروح التي وضعها الله في جسده، فكان بها تصديقا للقول المأثور: أن الله صنع الإنسان على صورته.

هذه تأملات وصور مرقت في ذهني مروق الشهاب اللامع في دجنة الليل، حينما وضع صاحب دار مكتبة الحياة السيد يحيى الخليل بين يدي مجموعة من الأخبار والروايات التي تتعلق بسيرة الإمام جعفر الصادق، علم من أعلام تاريخنا، بل هو من سلسلة الأعلام وأسطعها. ومن سلسلة الرجال، مقدمها.

وطلب إلي أن أقدم هذه المجموعة من الأخبار بمقدمة تليق بصاحبها في حدود ما يتاح لي من المعرفة ويتهيأ لي من الجهد.

فانتهزتها فرصة سعيدة، أتحدث فيها إلى القارئ العربي الكريم عما تكاد نفسي أن تنفجر عنه. ولم أجد طريقا أقرب إلى المواطن العربي من طريق الكتابة.

وكتبت لا لأن هذه الأخبار قد جمعت بعد دراسة وتنظيم. ولا لأن صاحبها قد استعمل المنهج الجدلي الذي نحن في أشد الحاجة إليه، بل لأنها تشير إلى رجل اجتمعت فيه فضائل الإنسان ذي الرسالة الحضارية، إنسان ظهر فيه القلق إلى المعرفة والتوق إلى الحقيقة. والقلق عنوان الحياة عنوان التقدم. وهو الحافز الذي يدفع بصاحبه إلى النهوض بمسؤولياته، يحركه عندما يسكن، ويشجعه عندما ييأس، ويقويه عندما يضعف.

إنه القلق الذي يربط صاحبه أبدا بذيول اللانهاية ويشده إليها شدا لا تردد فيه ولا تهاون. يوجه به إلى اللانهاية،، إلى الله، قلبه وعقله.

أما قلبه فيتخذ طريقه في قلوب الناس، يحمل إليها الدفء والقوة والأمل والحب. وأما عقله فيتخذ طريقه في المعرفة، معرفة ما كمن من الحقائق في الطبيعة وما انطوى من الأفكار في النفس، وما تاه وانتشر من التأملات في الفضاء.

هذا القلق الذي عبر عنه القول المأثور: " أن الدنيا سجن المؤمن لا

يخرج منه إلا بالموت ". والذي أضيف إليه توضيحا وتفسيرا أن وسيلة الخروج منه هي في عقد أمتن الصلة وأوثقها بالله سبحانه تعالى عن طريق التعبد له، في حب الناس، ومساعدة الناس، والتخفيف من بلاء الناس والكشف عن مواطن الخير في نفوس الناس. ثم التعبد له، في حب الحقيقة، والمساعدة على اكتشافها، حيث كانت في نفس الإنسان أو في مجاهل الطبيعة.

ولا بدع أن يكون الإمام جعفر الصادق موضعا لهذا القلق ورمزا له.

فقد كان فرعا من شجرة هي أكرم ما عرف النسب العربي...

ورث بها الزخم الروحي الذي تناقله أهل البيت النبوي الهاشمي الكريم.

وورث بها الإدارة الفاعلة التي لا تعترف بالهزيمة والفشل. كما ورث عمق الادراك والحساسية الشديدة، والخلاصة أنه ورث الحافز العجيب الذي لم يجد له الدارسون بعد تفسيرا في حدود ما عرفوه من الحقائق الإنسانية وجوانب النفس الخفية. أنه الذي تظهر به عبقرية الأمة، وتتجلى به طبيعتها الكامنة، علما، أو نضالا في سبيل الخير، أو قيادة عسكرية، أو نبلا في الخلق والضمير. وقد هيأت له ظروف حياته أن يكون من هذا كله موضعا للعبقريتين العلمية والخلقية. فكان إماما لفرقة دينية عظيمة أنبتت عبر التاريخ الإسلامي قمما خالدة في الفن والسياسة والفكر كان منها العلماء الأجلاء والشعراء الخالدون والفلاسفة أصحاب المدارس التاريخية الواضحة.

ولعلي لا أعدو الصواب حين أقول: إن القلق الذي تحول في نفس هذا الإمام حافزا يدفعه إلى التزيد من المعرفة والخير قد انتقل إلى الفرقة كلها التي ازداد تمثلها لهذا القلق ولما ينطوي عليه من زخم ثوري عجيب.

فكان التاريخ الإسلامي كله معركة دائمة بين المعارضة الشيعية، معارضة ظهرت في كل موطن، وفي كل علم، بل في كل فن وأدب، وبين السنة الموالين الذين يمثلون الحزب المحافظ في تاريخ هذا النضال الطويل.

وكما أن للحزب المحافظ فضل الابقاء على تماسك الأمة القائم وتراثها بكل ما فيه من خير وشر، وحق وباطل، وظلم وعدالة، فإن للحزب الشيعي، الديناميكية، التي سمحت لهذا العالم الهائل، العالم الإسلامي، أن يسجل خطواته التقدمية. وكان نتاج هذا الصراع الطويل بينهما التراث الذي ننعم به اليوم.

إن دراستنا لتاريخ رجال من أمثال الإمام جعفر الصادق تفرض علينا أن نتناول بالشرح والتفسير والعرض، المعارضة التي تتمثل في فئة كبيرة من العلماء والأدباء والفنيين والسياسيين على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم. والإمام جعفر من هؤلاء في القمة، وفي مراحل تاريخهم في مركز القيادة.

كانت حياته كلها إشعاعا لا ينقطع، يصوغ به العلماء، ويشيع به حب المعرفة، ويشارك به في الاستنتاج المنطقي السليم والتأمل الفكري.

كما كانت حياته إشعاعا لا ينقطع، يصوغ به الحب، سخاء في اليد، وسعة في الصدر، ونبلا في النفس، ونقاء في الضمير.

لقد أخرجت مدرسته رجالا خالدين كأبي حنيفة، وهو من نعلم من بين صفوة الرجال.

وأخرجت مدرسته إنسانية خيرة يدل عليها مثل قوله حين يتحدث عن كرامة الفقه والفقهاء.

" الفقهاء أمنا الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم. " ومن منا لا يتهم هؤلاء المشرعين الذين يركبون إلى السلاطين طلبا لمنفعة واستدرارا لنعمة من نعم الدنيا وحيازة لصلة من صلات الملوك؟

ومن منا لا يتنكر لظاهرة تاريخية واضحة نجد فيها أن كثيرا من الفكر والآراء المتعلقة بالتشريع والنظر الديني، قد فرضها الحاكم وعاقب عليها أو أثاب؟ أليست محنة الناس بالمعتزلة، أيام المأمون، والمعتصم، والواثق، مظهرا للانحراف التشريعي والديني؟ أو ليست محنة المعتزلة بالسنة أيام المتوكل، ظاهرة أخرى، من ظاهرات هذا الانحراف؟

وقل مثل ذلك في شتى من الانحرافات والتوجيهات التي اصطنعتها الدولة عند العباسيين وغيرهم من مؤسسي الدول الإسلامية، يدخل فيها الفاطميون، والأمويون والموحدون، والمرابطون، وغيرهم ممن كان لهم شأن في صنع هذا التاريخ الضخم العجيب.

لقد كان الإمام رحمه الله يشير إلى هذه الظاهرة قبل سنوات طويلة من ظهور المآسي الفكرية التي أشرنا إليها.

ولننظر إليه في أقوال صدرت عنه وأفعال جرت على يديه يعلم بها أصحابه كيف يكونون في مستوى الرسالة العظيمة التي لها ينهضون.

جاء في مطالب السؤول: أنه كان رجل من أهل السواد يلزم جعفرا فافتقده فسأل عنه، فقال له رجل يريد أن يستنقص به: إنه نبطي، فقال جعفر عليه السلام: أصل الرجل عقله وحسبه دينه وكرمه تقواه والناس في آدم مستوون. فاستحى ذلك القائل.

وقال الآبي في " نثر الدرر " " مر به رجل وهو يتغدى فلم يسلم. فدعاه إلى الطعام. فقيل له: السنة أن يسلم ثم يدعى، وقد ترك السلام على عمد. فقال: هذا فقه عراقي فيه بخل اه... "

في هذين الخبرين ما يشير إلى طريقه (الإمام رضي الله عنه) في معالجة المشكلات الأخلاقية التي تعترضه. ففي طريقته البساطة الساذجة التي لا يفوز بها غير الكبار من الناس. يتناول الحادثة بالتعليق السريع الواضح، ويحل العقدة بكلمة أو كلمات قليلة. فهو في الخبر الأول يذكر الناس بقوله تعالى:

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم. "

يقول هذا في يوم كان فيه العربي سيد المشرق والمغرب. بل كاد يكون الحاكم المفرد في العالم المعروف يومئذ. يقاوم بقوله الغرور الذي خلفه السلطان، والعصبية التي تنميها الثارات بين العرب والأمم المغلوبة على أمرها.

وهو في الخبر الثاني ينكشف عن براعة حلوة محببة، ومرونة رائعة في تفسير الأصول التشريعية. ولئن كان الموضوع بحد ذاته موضوعا تافها فقد لفتت نظرنا الطريقة التي عالج بها الموضوع. فكأنه يريد أن يقول لسائله ما قاله الرسول (ص) في بعض ما روي عنه: الاحسان خير من العدل.

فقد يكون، في عدم دعوة من لا يسلم إلى الغداء، حقا للتغدي. ولكن الاصرار على دعوته رغم ذلك تجاوز عن العدل طلبا للخير. أو تنازل عن الحق طلبا للإحسان.

ففي الاحسان حب هو فوق التشريع، وهو المعنى الذي تتكامل به إنسانية الإنسان: فكأن الله سبحانه وتعالى عندما قال في محكم كتابه: " وأن تعفوا أقرب للتقوى " إنما يقصد هذا المعنى بالذات.

والخلاصة أن الإمام جعفر الصادق كان يعمل بوحي الروح القرآنية.

الروح التي فرضت للناس حقوقهم وواجباتهم ووضعت لكل فريق حده، وهو مما تقتضيه ضرورة العدالة التي تستقيم بها الدولة ويتم بها الاستقرار.

ولكن التربية القرآنية لا تستهدف تحقيق العدل من خلال القانون المفصل فقط، بل تستهدف أن يتفوق الإنسان على نفسه تفوقا فيه معنى السيطرة على الغريزة، والمبالغة في تعرية النفس من شوائب الدنيا ومواطنها الجسدية المادية. إنه ما سماه الرسول (ص)، بالإحسان، وجعله فوق العدل. والحضارة في أعمق معانيها هي التي تنتهي في أعظم غاياتها إلى اكتشاف إنسانية الإنسان في أرفع معانيها وأقربها اتحادا بالمعنى الإلهي الخالد من عفو وسماحة وغفران.

ولم تظهر التربية القرآنية عند الإمام جعفر رحمه الله في هذين الخبرين فقط بل امتلأت بمئات من أمثالها كتب سيرته وأخباره. ولعل فيما رواه ابن شهرآشوب في مناقبه دلالة أوضح على عظيم تمسكه بالتربية القرآنية.

فقد جاء في هذا الكتاب: أن عمرو بن عبيد قد دخل على الصادق (ع) وقرأ " إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ". وقال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله (أو من سنة رسول الله) فقال نعم يا عمرو.

ثم فصلها فيما يأتي:

١ - " الشرك بالله " إن الله لا يغفر أن يشرك به

٢ - " اليأس من روح الله " ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

٣ - " عقوق الوالدين " لأن العاق جبار شقي: " وبرا بوالدتي ولم
يجعلني جبارا شقيا. "
٤ - " قتل النفس " ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها.
وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما.
٥ - " قذف المحصنات " إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات،
لعنوا في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم.
٦ - " أكل مال اليتيم " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما
يأكلون في بطونهم نارا، وسيصلون سعيرا.
٧ - " الفرار من الزحف " ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال
أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم
وبئس المصير. "
٨ - " أكل الربا " الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي
يتخبطه الشيطان من المس.
٩ - " السحر " ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق.
١٠ - " الزنا " ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا.
١١ - " اليمين الغموس " إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا
أولئك لا خلاق لهم في الآخرة. ولا يكلمهم الله. ولا ينظر
إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم. ولهم عذاب أليم.
١٢ - " الغلول " ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة.
١٣ - " منع الزكاة " والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في

سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم
فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. هذا ما كنزتم لأنفسكم
فذوقوا ما كنتم تكنزون.
١٤ - " شهادة الزور " والذين لا يشهدون الزور
١٥ - " كتمان الشهادة " ومن يكتمها فإنه آثم قلبه
١٦ - " شرب الخمر " لقوله عليه السلام: شارب الخمر كعابد وثن
١٧ - " ترك الصلاة " لقوله عليه السلام: من ترك الصلاة متعمدا فقد
برئ من ذمة الله وذمة رسوله
١٨ - " نقض العهد وقطيعة الرحم " الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك
هم الخاسرون.
١٩ - " قول الزور " واجتنبوا قول الزور
٢٠ - " الجرأة على الله " أفأمنوا مكر الله؟ فلا يأمن مكر الله إلا
القوم الخاسرون.
٢١ - " كفران النعمة " لئن كفرتم إن عذابي لشديد
٢٢ - " بخس الكيل والوزن " ويل للمطففين
٢٣ - " اللواط " الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
٢٤ - " البدعة " لقوله عليه السلام: من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان
على هدم دينه.
قال فخرج عمرو وله صراخ من بكائه. وهو يقول: " هلك من
سلب تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم انتهى ".

ولكي يقدر القارئ الكريم قيمة ما فاه به عمرو بن عبيد نذكره
أن عمروا هذا، هو الذي قال فيه أبو جعفر المنصور، الخليفة العباسي،
يوم كان يوازن بين الناس ويكشف عن حقيقة ما كمن في نفوسهم من
شهوات:
كلكم يطلب صيد * غير عمرو بن عبيد
فهو في شهادة حاكم لم يعرف من الناس غير التملق، ومجانبة الحق،
اكراما له، ورغبة في صلاته والاستمتاع بمتاعه، إنسان متميز من
الجميع، لا يزور الحاكم إلا طلبا لرضى الله ورغبة في تقويم ما انحرف
من أقواله وأعماله.
ومهما يكن الأمر فقد كان الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه من
أولئك الذين عاش القرآن في نفوسهم وبدا في أقوالهم وأعمالهم يمشي فيهم
على قدميه ويعمل فيهم بيديه ويفكر فيهم بعقله.
لقد كان هذا الإمام نورا في الليلة الليلاء والدجنة الطخياء يستهدي به
الضال ويستنير به الأعمى ويستفيد منه المتعلم.
وقد كنت أحب أن أكثر من الشواهد التي تشهد على عظيم فضله في
إدراك روح القرآن وتفهمه لمعانيه. فقد كان رحمه الله مرجعا يرجع إليه
في توضيح ما تشابه من آيات الله وتعميق المحكمات من هذه الآيات حتى
أن عمرو بن عبيد، الرجل العدل، الكبير القلب، الواسع المعرفة،
يأتيه ليأخذ عنه بعض ما يعلم من معاني القرآن وجوانب الإسلام.
وقد كنت أتمنى على جامع هذه الأخبار التي قدمت مدخلي هذا بين

يديها، أن يتناول بالدرس والتمحيص والدراية، ويعالج كل جانب من جوانب شخصية الإمام على حده. لا سيما وأن شخصيته رحمه الله غنية بما حباها الله من فكر غزير وقلب كبير وإيمان عظيم ويد سخية.

والله أسأل أن يهئ لي المناسبة المباركة التي تسمح لي بعرض ميادين نشاطه الفائق وشخصيته الفذة. وفي هذه الأخبار ما يساعد القارئ على تكوين، رأي أقرب إلى التمام في أكثر ما يتعلق بشخصية الإمام ولا سيما جانبها الخلقي. مع العلم أن الأخبار التي رويتها في هذه المقدمة منقولة كلها عن هذه المجموعة التي تقدمها دار مكتبة الحياة إلى القراء الكرام.

رمضان لاوند

الباب الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

مولد جعفر الصادق

جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، سادس أئمة الشيعة وأحد كبار أعلامهم ورؤوس شريعتهم...

ولد بالمدينة يوم الجمعة أو الاثنين عند طلوع الفجر في ١٧ ربيع الأول وقيل غرة رجب سنة ٨٠ للهجرة. وذكر في " المفيد " " والشهيد " أنه ولد سنة ٨٣.

قال ابن الخشاب عن الذراع " الرواية الأولى هي الصحيحة "..

وتوفي يوم الاثنين في شوال. وقيل منتصف رجب، وذكر صاحب

" جنات الخلود " أن الوفاة قد حدثت في ٢٥ منه، وله من العمر ٦٨ أو ٦٥ سنة.

أقام من عمره مع جده علي بن الحسين ١٢ سنة ومع أبيه محمد الباقر بعد جده ١٩ سنة وبعد أبيه ٣٤ سنة. وكانت السنوات الأخيرة هي مدة خلافته و إمامته، يوازيها من الحكم السياسي الأموي: بقية ملك هشام بن عبد الملك وملك الوليد بن يزيد بن عبد الملك فملك يزيد الملقب بالناقص فإبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد الملقب بالحمار. أما في العهد العباسي فقد عاصر السفاح وقضى عشر سنين من خلافة المنصور العباسي.

كان دفنه في البقيع إلى جوار أبيه الباقر وجده زين العابدين وعمه الحسن بن علي عليهم السلام.

وكان والده محمد الباقر هو خامس الأئمة أما أمه فقربية أو فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر.

وهذا معنى قول جعفر الصادق (ع) " إن أبا بكر ولدني مرتين " إذ أنه يعود بنسبه من جدته لأمه إلى أبي بكر أيضا، فجدته هي أسماء ابنة عبد الرحمن بن أبي بكر..

عرف جعفر الصادق بأبي عبد الله. وقال محمد بن طلحة بل بأبي إسماعيل وكانت له عدة ألقاب أشهرها: الصادق لصدق حديثه، وروى الصدوق أنه سمي بالصادق تمييزا له عن أخ للحسن العسكري ادعى الإمامة بغير حق ودعي كذابا.

وكان له شعراء عدة منهم السيد الحميري وأشجع السلمي والكميت وأبو هريرة والعبدي وجعفر بن عفان.

كما كان له من الأولاد عشرة. سبعة ذكور وثلاث بنات: وذكر:
أحد عشرهم:
إسماعيل الأمين وعبد الله وأم فروة وهي التي زوجها من ابن عمه الخارج، وموسى الإمام ومحمد الديباج وإسحاق وفاطمة الكبرى والعباس وعلي العريضي وأسماء وفاطمة الصغرى.

صفاته

كان جعفر، ربع القامة، أزهر الوجه، حالك الشعر، جعدا أشم الأنف أنزع، رقيق البشرة، على خده خال أسود وعلى جسده حبلان حمره.
أما الأخلاق فكان له منها أفضلها. وذكر أبو نعيم في حلية الأولياء
" هو الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر الصادق أقبل على العبادة والخشوع وآثر العزلة والخضوع ونهى عن الرئاسة.
وفي " مرآة الجنان " لليافعي: السيد الجليل سلالة النبوة ومعدن الفتوة أبو عبد الله جعفر الصادق.
قال عنه مالك بن أنس: " ما رأت عيني أفضل من جعفر بن محمد فضلا وعلما، وروعا وكان لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إما صائما وإما قائما وإما ذاكرا، وكان من عظماء العباد وأكابر الزهاد الذين يخشون ربهم وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد.
ويقال عنه: " الإمام الصادق، والعلم الناطق، بالمكرمات سابق، وباب السيئات راتق، وباب الحسنات فاتق، لم يكن عيابا ولا سبابا

ولا صخابا ولا طماعا ولا خداعا ولا نماما ولا ذماما ولا أكولا ولا عجولا ولا ملولا ولا مكثارا ولا ثرثارا ولا مهذارا ولا طعانا ولا لعانا ".
وروى أبو نعيم في " الحلية ": " كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين ". ويأتي في مناقبه أنه كان إذا صلى العشاء وذهب من الليل شطره أخذ جرابا فيه خبز ولحم ودراهم فحمله على عنقه ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مات وفقدوا ذلك، عرفوه. "

صفته في لباسه

روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: إن الله عز وجل يحب الجمال والتجمل ويبغض البؤس والتباؤس وعن الصادق " ع " أنه قال إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحب أن يراها عليه لأنه جميل يحب الجمال. وعنه أيضا: " أني لأكره للرجل أن يكون عليه من الله نعمة فلا يظهرها ".
وفي ذلك يتمشى جعفر الصادق مع الآية الكريمة: " وأما بنعمة ربك فحدث ".
وروي عن الصادق أنه قال: " البس وتجمل فإن الله جميل يحب الجمال، وليكن من حلال. وروى الشيخ الطوسي في التهذيب بسنده عن الصادق عليه السلام قال: " إن الله يحب الجمال و التجميل ويبغض البؤس والتباؤس فإن الله إذا أنعم على عبده بنعمة أحب أن يرى عليه أثرها. قيل كيف ذلك قال: ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويجصص داره ويكنس أفنيته

حتى أن السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر ويزيد في الرزق ". وروى
الكليني عن الصادق عليه السلام قال " بينا أنا في الطواف وإذا رجل
يجذب ثوبي وإذا عباد بن كثير البصري فقال: يا جعفر تلبس مثل هذه
الثياب وأنت في هذا الموضع مع المكان الذي أنت فيه من علي؟ فقلت
فرقبي (١) اشتريته بدينار وقد كان علي في زمان يستقيم له ما لبس فيه
ولو لبست مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس هذا مرائي مثل عباد "
وعنه: أن عباد بن كثير لقي الصادق (ع) وعليه؟ ثياب مروية (٢) حسان
فقال: يا أبا عبد الله إنك من أهل بيت نبوة وكان أبوك، وكان، فما لهذه الثياب
المروية عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب! فقال له أبو عبد الله: ويلك
يا عباد. من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ إن
الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يراها عليه ليس به بأس.
ويلك يا عباد إنما أنا بضعة من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا تؤذوني. "
وكان
عباد يلبس ثوبين فيهما بعض الخشونة.
وسئل جعفر الصادق: أصلحك الله كيف تذكر أن الإمام علي بن
أبي طالب كان يلبس خشن الثياب ويلبس القميص بأربعة دراهم وما
شابه ذلك وكان متقشفا لا يقيم وزنا إلا لقوت يومه، بينما أنت لا نرى
عليك إلا اللباس الجيد؟ فأجاب الصادق:
" إن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه كان يلبس الخشن في زمان

---

(١) نسبة إلى فرقب بالراء بين الفاء والقاف المضمومتين موضع تنسب إليه الثياب. والفرقبية ثياب بيض من كتان.
(٢) من الرواء بضم الراء والمد وهو المنظر الحسن أو منسوبة لمرو - المؤلف -

لا ينكر فيه ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهر به. فخير لباس كل زمان هو لباس أهله.

وروى الكليني أن سفيان الثوري دخل على جعفر الصادق فرأى عليه ثيابا بيضا فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك، فقال له: " اسمع مني وع ما أقول لك فإنه خير لك عاجلا وآجلا إن كنت مت على السنة ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله كان في زمان مقفر جدب وها قد أقبلت الدنيا يملكها مؤمنوها ومسلموها لا كفارها ومنافقوها، فما أنكرت يا ثوري؟ فوالله أني مع ما ترى ما أتى علي منذ عقلت، صباحا ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعا إلا وضعته "

ويقصد جعفر هنا أن يقول: أن للإنسان أن يستغل إلى أبعد الحدود ماله ما دام يقيم فيه لله زكاته المفروضة عليه وما دام لا يصرفه في غير أبوابه.

وروى من ذلك كثير لا يخرج عما جاء في جواب جعفر الصادق الأول. من ذلك أن الكشي ذكر في كتاب " الرجال " أن سفيان بن عيينة دخل على جعفر الصادق وكان بخير بزة فقال له: " إن علي بن أبي طالب كان يرتدي الخشن من الثياب وأنت تلبس القوهي (١) " أجابه جعفر: " ويلك إن عليا كان في زمان ضيق فإذا اتسع الزمان فأبرار الزمان أولى به "

وروى له حادث آخر عن سفيان الثوري إذ رآه يوما في ثياب ناعمة وهو يصلي في المسجد فأتاه يوبخه؟ فما كان من جعفر إلا أن صاح به:

----

(١) ثياب بيض سميت كذلك نسبة إلى قوهستان.

" إن الله لم يحرم الزينة، وإذا كانت الزينة غير محرمة، فنحن بها أولى.
ثم قال لسفيان الثوري وقد أراد أن يبين له سوء نيته:
ما ترى علي من ثوب إنما لبسته للناس، ثم اجتذب يد سفيان فجرها إليه، ثم رفع الثوب الأعلى وأخرج ثوبا تحت ذلك على جلده غليظا، فقال: هذا لبسته لنفسي وما رأيته فهو للناس، ثم جذب ثوبا على سفيان أعلاه غليظ خشن وداخل ذلك ثوب لين فقال: لبست هذا الأعلى للناس ولبست هذا لنفسك تسرها "، وفي " حلية الأولياء " عن سفيان الثوري: " دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز دكناء وكساء خز، فجعلت أنظر إليه معجبا فقال لي: يا ثوري ما لك تنظر إلينا لعلك تعجب مما رأيت فقلت له يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس هذا من لباسك ولا لباس آبائك.
قال:
يا ثوري كان ذلك زمانا مقفرا مقترا وكانوا يعملون على قدر إقفاره وإقتاره وهذا زمان قد أسبل كل شئ فيه عز إليه " ثم حسر عن ردن جبته فإذا تحتها جبة صوف بيضاء يقصر الذيل والردن عن الردن وقال يا ثوري لبسنا هذا الله تعالى وهذا لكم فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه.

الباب الثاني

أدلة إمامة جعفر الصادق (ع)

لكل إمام أدلة عرفت عنه وله. وكلها تشهد بعصمته ووجوب الاقرار بإمامته. وأدلة إمامة جعفر الصادق (ع) كثيرة، وهذا بيانها:

الأول: وصية أبيه له. قال المفيد في " الإرشاد ": كان الصادق جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام من بين إخوته، خليفة أبيه ووصيه والقائم بالإمامة من بعده.

الثاني: النص عليه من أبيه فقد ذكر المفيد في الإرشاد: وصى له أبو جعفر وصية ظاهرة، ونص عليه بالإمامة نصا جليا، ثم ذكر الأخبار التي تضمنت النص عليه، ومنها حديث الحسين بن محمد عن أبي الصباح الكناني: نظر أبو جعفر إلى جعفر يمشي فقال: هذا من الذين قال الله، عز وجل فيهم: " ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ".

ومنها رواية عن جعفر: أن أباه لما حضرته الوفاة استدعاه وقال له:

" يا أبا عبد الله أوصيك بأصحابي خيرا " فقال له: " والله لأدعنهم، والرجل يكون منهم في المصر فلا يسأل أحدا من أمر الدين ".
وروى عن الصيرفي: " سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن من سعادة الرجل أن يكون له الولد يعرف فيه شبه خلقه وخلقه وشمائله، وأني لأعرف من ابني هذا شبه خلقي وخلقي وشمائلي، يعني أبا عبد الله عليه السلام ".
وروى عن طاهر: " كنت عند أبي جعفر فأقبل جعفر فقال أبو جعفر: هذا خير البرية "، وذكر محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن هشام بن سالم عن جابر ابن يزيد الجعفي عن أبي جعفر (ع) " سئل عن القائم فضرب بيده على أبي عبد الله (ع) فقال: هذا والله قائم آل محمد " وفسره الصادق (ع) في آخر الحديث بأن كل إمام، هو القائم بعد الإمام الذي كان قبله.
(الثالث) أنه أفضل أهل زمانه علما وعملا وزهدا وورعا وعبادة وحلما وسخاء وكرما، وفي جميع صفات الفضل، فيكون أحق بالإمامة والخلافة لقبح تقديم المفضول على الفاضل عقلا، وامتناع خلو الزمان من الإمام. قال المفيد في الإرشاد: ثم الذي قدمناه من دلائل العقول أن الإمام لا يكون إلا الأفضل، يدل على إمامته عليه السلام لظهور فضله في العلم والزهد والعمل على إخوته وبني عمه، وسائر الناس من أهل عصره. وقال قبل ذلك: برز الصادق، عليه السلام، على جماعة إخوته بالفضل، وكان أنبههم ذكرا وأعظمهم قدرا وأجلهم في العامة والخاصة. وقال ابن حجر في الصواعق: خلف الباقر ستة أولاد أفضلهم وأكملهم جعفر الصادق

ومن ثم كان خليفته ووصيه. أو قال مالك بن أنس: " ما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلا وعلما وعبادة وورعا. وكان مالك إذا حدث عنه يقول: حدثني الثقة بعينه! " ودخل إليه سفيان الثوري يوما فسمع منه كلاما أعجبه فقال: " هذا، والله يا ابن رسول الله، الجواهر فقال له: بل هذا خير من الجوهر! وهل الجوهر إلا حجر؟ ".

ويأتي في أخباره مع أبي حنيفة قول أبي حنيفة وقد سئل: من أفقه من رأيت؟؟ قال: " جعفر بن محمد! " وقوله: أليس أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟.

وقال الشهرستاني في " الملل والنحل " هو - أي الصادق - ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا، وورع تام عن الشهوات، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم. "

ويدل على أنه أفضل أهل زمانه مضافا إلى ما شاع وذاع وملأ الكتب والأسماع ما يأتي في مناقبه وفضائله. وعن زيد بن علي بن الحسين أنه قال: " في كل زمان رجل منا، أهل البيت، يحتج به الله على خلقه، وحجة زماننا ابن أخي جعفر بن محمد، لا يضل من اتبعه ولا يهتدي من خالفه. "

الرابع: ظهور المعجزات على يديه:

وهذه المعجزات التي بمثلها تثبت نبوة الأنبياء قد ظهرت على يديه.

قال المفيد في الإرشاد: " كان له من الدلائل الواضحة ما بهر العقول،

وأخرس المخالف عن الطعن فيها بالشبهات، ثم قال: وقد روى الناس من آيات الله، جل اسمه، الظاهرة على يده عليه السلام، ما يدل على إمامته، ثم ذكر عدة نقتطف منها في هذا المقام الأخبار التالية:
استجابة دعائه - وذلك في قصة مع المنصور الذي كان شديد الغضب عليه، عازما على قتله، فدعا فسكن غضبه ونجا منه وأكرمه. "
إخباره بالمغيبات
روى أبو بصير قال: " دخلت المدينة ومعي جويرية لي، فأصبت منها ثم خرجت إلى الحمام، فلقيت أصحابنا الشيعة وهم متوجهون إلى أبي عبد الله، جعفر الصادق، فمشيت معهم حتى دخلت الدار، فلما مثلت بين يديه نظر إلي ثم قال: يا أبا بصير، أما علمت أن بيوت الأنبياء وأولاد الأنبياء لا يدخلها الجنب؟ فاستحييت وقلت: يا ابن رسول الله، إني لقيت أصحابنا فخشيت أن يفوتني الدخول معهم ولن أعود إلى مثلها وخرجت. "
ومن إخباره بالمغيبات، إخباره بخلافة السفاح والمنصور وبقتل المنصور لمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن.
روى أبو الفرج الأصفهاني في كتابه " مقتل الطالبيين ": " أن جماعة من بني هاشم اجتمعوا بالأبواء (وهو موضع بين مكة والمدينة) وفيهم إبراهيم بن علي، وعبد الله بن حسن بن حسن، وابناه محمد وإبراهيم، ومحمد ابن عبد الله، فقال صالح بن علي: لقد علمتم أنكم الذين تمد الناس إليهم عيونهم،

وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إياها من أنفسكم وتواثقوا على ذلك حتى يفتح الله، وهو خير الفاتحين، فقال عبد الله بن الحسن:

قد علمتم أن ابني هذا هو المهدي فهلم فلنبايعه. وقال أبو جعفر:

لأي شئ تخدعون أنفسكم؟ والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى، يعني محمد بن عبد الله. قالوا: قد صدقت والله أن هذا لهو الذي نعلم. فبايعوا محمدا جميعا ومسحوا على يده. قال عيسى: وجاء رسول عبد الله بن حسن إلى أبي أن ائتنا فإننا مجتمعون لأمر. وأرسل بذلك إلى جعفر بن محمد، هكذا قال عيسى، وقال غيره: قال لهم عبد الله بن الحسن لا تريدوا جعفرا لئلا يفسد عليكم أمركم. قال عيسى: فأرسلني أبي أنظر ما اجتمعوا عليه. وأرسل جعفر بن محمد، محمد بن عبد الله الأرقط ابن علي بن الحسين، فجئناهم فإذا بمحمد بن عبد الله يصلي على طنفسة رجل مثنية فقلت: أرسلني أبي إليكم لأسألكم لأي شئ اجتمعتم؟ فقال عبد الله: اجتمعنا لنبايع المهدي محمد بن عبد الله. قال: وجاء جعفر بن محمد فأوسع له عبد الله بن حسن إلى جنبه فتكلم بمثل كلامه. فقال جعفر: لا تفعلوا فإن هذا الأمر لم يأت بعد فإن كنت ترى، يعني عبد الله، أن ابنك هو المهدي فليس به ولا هذا أوانه. وإن كنت إنما تريد أن نخرجه غضبا لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فإنا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك، فغضب عبد الله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول، والله ما أطلعك الله على غيبه، ولكن يحملك على هذا الحسد لابني! فقال: والله ما ذاك يحملني ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم. وضرب بيده على ظهر أبي العباس

ثم ضرب بيده على كتف عبد الله بن الحسن وقال: إنها والله ما هي إليك ولا إلى ابنيك ولكنها لهم، وأن ابنيك لمقتولان. ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهري فقال: أرأيت صاحب الرداء الأصفر، يعني أبا جعفر. فقال: نعم! قال: فإنا والله نجده يقتله. قال: قلت له أيقتل محمدا؟ قال: نعم. فقلت في نفسي: " حسده ورب الكعبة " قال: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما. فلما قال جعفر ذلك نهض القوم وافترقوا ولم يجتمعوا بعدها، وتبعه عبد الصمد وأبو جعفر فقالا: يا أبا عبد الله، أتقول هذا؟ قال: نعم أقوله والله، وأعلمه.

قال أبو الفرج: " كان جعفر بن محمد إذا رأى محمد بن عبد الله تغرغرت عيناه، ثم يقول: بنفسي هو! إن الناس ليقولون فيه أنه المهدي وأنه لمقتول! ليس هذا في كتاب علي من خلفاء هذه الأمة " قال المفيد في الإرشاد: " وهذا حديث مشهور كالذي قبله لا يختلف العلماء بالأخبار في صحتهما، وهما يدلان على إمامة أبي عبد الله الصادق، وأن المعجزات كانت تظهر على يده لإخباره بالغائبات والكائنات قبل كونها كما كان يخبر الأنبياء عليهم السلام، فيكون ذلك من آياتهم وعلامات نبوتهم وصدقهم على ربهم عز وجل ا ه ".

قال محسن الأمين " رواية أبي الفرج الأصبهاني هذين الخبرين المسندين في كتابه، والأول منهما متعدد الأسانيد، مع كونه من الزيدية، يعتقد إمامة محمد وأخيه إبراهيم دون إمامة جعفر بن محمد، أقوى دليل على صحة الحديثين. "

ومن إخباره بالمغيبات، إخباره الشامي عن يوم خروجه وعن طريقه وما مر عليه وما مر به ويأتي في فضائله ومناقبه عند ذكر علمه وما أثر عنه من علم الكلام.

(الخامس) أن عنده سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما يأتي في مناقبه وفضائله وقد قال، عليه السلام، فيما رواه المفيد عن معاوية بن وهب عن سعيد السمان عنه: ومثل السلاح فينا كمثل التابوت في بني إسرائيل، كان أي بيت وجد فيه التابوت على بابهم أوتوا النبوة، ومن صار السلاح إليه منا أوتي بالإمامة. قال الشيخ الجليل المفيد يعني التابوت الذي جاءت به الملائكة إلى طالوت.

الباب الثالث

مناقب جعفر الصادق وفضائله (ع)

تجدر بنا الإشارة هنا إلى أن كل ما نذكره لجعفر الصادق من المناقب والفضائل إنما يشارك بها غيره من الأئمة، لأنهم من طينة واحدة ونور واحد، يجري لآخرهم ما يجري لأولهم وهم أكمل أهل زمانهم في كل صفة فاضلة، ولكنه بقي لكل إمام منهم فضائل خاصة عرف بها فظهرت في علي بن أبي طالب وولده الحسين عليهما السلام آثار الشجاعة....

أما الصادق والباقر فقد ظهرت فيهما آثار العلم، وكلهم مشتركون في أنهم أكرم أهل زمانهم وأسخاهم. وقد تكون العبادة في بعضهم أظهر منها في غيره لبعض الموجبات: كقلة اطلاع الناس على حاله، أو قصر مدته في دار الدنيا، أو غير ذلك، وكلهم أعبد أهل زمانهم.

وقد تكون آثار الحلم في بعضهم أظهر منها في غيره، لكثرة ما ابتلي به من أنواع الأذى التي يظهر معها حلم الحليم دون غيره، وكلهم أحلم أهل زمانهم، إلى غير ذلك من مقتضيات الأحوال التي تعرض لهم، فليتنبه

لذلك. ومناقب الصادق (ع) وفضائله كثيرة نقتصر منها على ذكر
ما يلي:

العلم

روى الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في معالم العترة الطاهرة قال: " سمعت جعفر بن محمد يقول سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي. وقال ابن حجر في صواعقه: " نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان " ا ه وفي مناقب ابن شهرآشوب " نقل عنه من العلوم ما لم ينقل عن أحد " وقال أيضا: قال نوح بن دراج لابن أبي ليلى " أكنت تاركا قولا قلته أو قضاء قضيته لقول أحد؟ قال: لا إلا رجلا واحدا. قال: من هو؟ قال:
جعفر بن محمد.

وقال المفيد في الإرشاد: نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل العلماء عن أحد من أهل بيته ما نقل عنه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبار ما لقيه من أبي عبد الله، عليه السلام، فإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء المقالات فكانوا أربعة آلاف رجل. جمع الحافظ بن عقبة في كتاب رجاله أربعة آلاف رجل من الثقات الذين رووا عن جعفر بن محمد، فضلا عن غيرهم، وذكر مصنفاتهم، ومر في المقدمات قول المحقق في المعتبر: انتشر عن جعفر بن محمد من العلوم الجمة ما بهر به العقول ".

وروى عنه راو واحد، وهو أبان بن تغلب، ثلاثين ألف حديث.

وروى الكشي في رجاله بسنده عن الصادق (ع) أنه قال: " أبان بن تغلب روى عني ثلاثين ألف حديث "، وروى النجاشي في رجاله عن الحسن بن علي الوشا في حديث أنه قال: " أدركت في هذا المسجد " يعني مسجد الكوفة، تسعمائة شيخ، كل يقول: حدثني جعفر بن محمد.
وقال المفيد في الإرشاد: كان عليه السلام، يقول: علمنا غابر ومزبور ونكت في القلوب ونقر في الأسماع، وأن عندنا الجفر الأحمر، والجفر الأبيض، ومصحف فاطمة، عليها السلام. وأن عندنا الجامعة فيها جميع ما يحتاج الناس إليه. فسئل عن تفسير هذا الكلام فقال: أما الغابر فالعلم بما يكون، وأما المزبور فالعلم بما كان، وأما النكت في القلوب فهو الالهام، وأما النقر في الأسماع فهو حديث الملائكة، عليهم السلام، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم، وأما الجفر الأحمر فوعاء فيه سلاح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولن يخرج حتى يقوم قائمنا، أهل البيت، وأما الجفر الأبيض فوعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وكتب الله الأولى، وأما مصحف فاطمة عليها السلام ففيه ما يكون من حادث، وأسماء كل من يملك إلى أن تقوم الساعة، وأما الجامعة فهو كتاب طوله سبعون ذراعا أملاه رسول الله، (ص)، من فلق فيه وخطه علي بن أبي طالب، صلوات الله عليه، بيده، فيه والله جميع ما يحتاج الناس إليه إلى يوم القيامة حتى أن فيه أرش الخدش والجلدة ونصف الجلدة. وكان عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وحديث رسول الله قول الله عز وجل.

وفي حديث رواه المفيد في الإرشاد أن الصادق عليه السلام قال: وإن عندي الاسم الذي كان رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إذا وضعه بين المسلمين والمشركين لم يصل من المشركين إلى المسلمين نشابة الحديث.
وقال ابن شهرآشوب في المناقب: " ولا تخلو كتب أحاديث وحكمة وزهد وموعظة من كلامه ".
وذكر صاحب المفيد في الإرشاد: " ومما حفظ عنه في وجوب المعرفة بالله تعالى وبدينه قوله: وجدت علم الناس كلهم في أربع: (أولها) أن تعرف ربك (والثاني) أن تعرف ما صنع بك (والثالث) أن تعرف ما أراد منك (والرابع) أن تعرف ما يخرجك عن دينك.
قال المفيد: " وهذه أقسام تحيط بالمفروض من المعارف لأنه أول ما يجب على العبد معرفة ربه جل جلاله، فإذا علم أن له إلها وجب أن يعرف صنيعه إليه، فإذا عرف صنيعه إليه، عرف به نعمته، فإذا عرف نعمته، وجب عليه شكره، فإذا أراد تأدية شكره، وجب عليه معرفة مراده ليطيعه بفعله، وإذا وجبت عليه طاعته وجبت عليه معرفة ما يخرجه عن دينه ليجتنبه فيخلص به طاعة ربه وشكره على إنعامه.
ذكر في الإرشاد مما حفظ عنه في التوحيد ونفي التشبيه قوله لهشام ابن الحكم: أن الله تعالى لا يشبه شيئا ولا يشبهه شئ، وكلما وقع في الوهم فهو بخلافه.
ذكر المرتضى في الأمالي قال: " روي عن أبي عبد الله الصادق (ع) أنه سأله محمد الحلبي فقال له: هل رأى رسول الله (ص) ربه؟ فقال:

نعم رآه بقلبه، فأما ربنا جل جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين.
جاء في الإرشاد: ومما حفظ عنه من موجز القول في العدل، قوله لزرارة بن أعين " يا زرارة أعطيك جملة في القضاء والقدر، قال له زرارة نعم جعلت فداك، قال له إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم ولا يسألهم عما قضى عليهم.
وجاء في الإرشاد: ومما حفظ عنه في الحث على النظر في دين الله والمعرفة لأولياء الله قوله: أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله وانصحوا لأنفسكم وجاهدوا في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله فإن لدين الله أركانا لا تنفع من جهلها شدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته ولا يضر من عرفها فدان بها، حسن اقتصاده. ولا سبيل لأحد إلى ذلك إلا بعون من الله.
جعفر الصادق (ع) وعلم الكلام
ذكر المفيد في الإرشاد قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فورد عليه رجل من أهل الشام فقال له: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك؟ فقال له أبو عبد الله: كلامك هذا من كلام رسول الله (ص) أو من عندك؟ فقال من كلام رسول الله بعضه ومن عندي بعضه، فقال له أبو عبد الله: فأنت إذن شريك رسول الله (ص)؟ قال: لا، قال: فسمعت الوحي عن الله؟
قال: لا، قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله (ص)
قال: لا، فالتفت أبو عبد الله إلي وقال لي يا يونس بن يعقوب هذا

قد خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم قال: يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلمته، قال يونس: فيا لها من حسرة! فقلت جعلت فداك إني سمعتك تنهي عن الكلام وتقول: ويل لأصحاب الكلام، يقولون هذا ينقاد وهذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا لا نعقله، فقال أبو عبد الله (ع) إنما قلت ويل لقوم تركوا قولي وذهبوا إلى ما يريدون! ثم قال: اخرج إلى الباب وانظر من ترى من المتكلمين فأدخله، فخرجت فوجدت حمران بن أعين، وكان يحسن الكلام، ومحمد بن النعمان الأحول، وكان متكلما وهشام بن سالم وقيس الماصر، وكانا متكلمين، فأدخلتهم عليه، فلما استقر بنا المجلس، وكنا في خيمة لأبي عبد الله عليه السلام على طرف جبل في طرف الحرم، وذلك قبل الحج بأيام أخرج أبو عبد الله رأسه من الخيمة، فإذا هو ببعير يخب، فقال: هشام ورب الكعبة. فظننت أن هشاما رجل من ولد عقيل كان شديد المحبة لأبي عبد الله (ع)، فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطت لحيته وليس فينا إلا من هو أكبر سنا منه، فوسع له أبو عبد الله وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده! ثم قال لحمران: كلم الرجل، يعني الشامي، فكلمه حمران فظهر عليه ثم قال: يا طاقي كلمه فكلمه، فظهر عليه محمد بن النعمان ثم قال: يا هشام بن سالم كلمه، فتقاربا، ثم قال لقيس الماصر: كلمه، فكلمه. وأقبل أبو عبد الله يتبسم من كلامهما، وقد استخذل الشامي في يده، ثم قال للشامي: كلم هذا الغلام، يعني هشام بن الحكم، فقال: نعم. ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا، يعني أبا عبد الله (ع)، فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له:

أخبرني يا هذا، ربك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامي:
بل ربي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال:
كلفهم وأقام لهم حجة ودليلا على ما كلفهم به وأزاح في ذلك عللهم.
فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال الشامي: هو
رسول الله (ص).
قال له هشام: فبعد رسول الله (ص) من؟ قال: الكتاب والسنة.
قال له هشام: هل ينفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه حتى رفع
عنا الاختلاف، ومكننا من الاتفاق؟ قال: نعم. قال له هشام: فلم
اختلفنا نحن وأنت وجئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم أن الرأي طريق الدين،
وأنت تقر بأن الرأي لا يجتمع على القول الواحد للمختلفين؟ فسكت
الشامي كالمفكر، فقال له أبو عبد الله (ع): ما لك لا تتكلم؟ قال:
إن قلت إنا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إن الكتاب والسنة يرفعان عنا
الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك،
فقال له أبو عبد الله (ع): سله تجده مليا! فقال الشامي لهشام: من
أنظر للخلق ربهم أو أنفسهم؟ فقال هشام: بل ربهم أنظر لهم. فقال:
الشامي: فهل أقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين لهم حقهم
من باطلهم؟ قال هشام: نعم. قال الشامي: من هو؟ قال هشام:
أما في ابتداء الشريعة فرسول الله (ص)، وأما بعد النبي (ص) فغيره.
قال الشامي: ومن هو غير النبي القائم مقامه في حجته؟ قال هشام: في
وقتنا هذا أم قبله؟ قال الشامي: بل في وقتنا هذا. قال هشام: هذا
الجالس، يعني أبا عبد الله عليه السلام، الذي تشد إليه الرحال ويخبرنا
بأخبار السماء وراثة عن أب عن جد! قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟

قال هشام: سله عما بدا لك. قال الشامي: قطعت عذري فعلي السؤال. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: أنا أكفيك المسألة يا شامي! أخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت في يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومر بك كذا! فأقبل الشامي كلما وصف له شيئا من أمره يقول: صدقت والله! ثم قال له الشامي: أسلمت لله الساعة! فقال له أبو عبد الله عليه السلام: بل آمنت بالله الساعة إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون. قال الشامي: صدقت! فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأنك وصي الأوصياء! وأقبل أبو عبد الله عليه السلام على حمران بن أعين فقال: يا حمران تجري الكلام على الأثر فتصيب. والتفت إلى هشام بن سالم فقال: تريد الأثر ولا تعرف؟ ثم التفت إلى الأحول فقال: قياس رواغ تكسر باطلا بباطل إلا أن باطلك أظهر. ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: متكلم وأقرب ما تكون من الحق، والخبر عن الرسول (ص) أبعد ما تكون منه، تخرج الحق بالباطل، وقليل الحق يكفي من كثير الباطل، أنت والأحول قفازان حاذقان! قال يونس ابن يعقوب: فظننت والله أنه يقول لهشام بن الحكم قريبا مما قال لهما. فقال: يا هشام لا تكاد تقع حتى تلوي رجليك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلم الناس، اتق الله، فالزلة والشفاعة وراءك، قال المفيد: وهذا الخبر مع ما فيه من حجة في النظر ودلالة في الإمامة، يتضمن من المعجز لأبي عبد الله (ع) بالخبر عن الغائب مثل الذي تضمنه الخبران المتقدمان (يعني خبر مقاتل الطالبيين وخبر عتبة ابن نجاد المتقدمين في أدلة إمامته) وموافقتهما في معنى البرهان ا ه.

احتجاجه على الزنادقة

كان ابن أبي العوجاء وابن طالوت وابن الأعمى وابن المقفع، في نفر من الزنادقة، مجتمعين في الموسم بالمسجد الحرام، وأبو عبد الله جعفر بن محمد، عليهما السلام، فيه إذا ذاك، يفتي الناس ويفسر لهم القرآن، ويجيب عن المسائل بالحجج والبينات، فقال القوم لابن أبي العوجاء: هل لك في تغليط هذا الجالس، وسؤاله عما يفضحه عند هؤلاء المحيطين به، فقد ترى فتنة الناس به، وهو علامة زمانه؟ فقال لهم ابن أبي العوجاء: نعم! ثم تقدم ففرق الناس فقال: يا أبا عبد الله، إن المجالس أمانات ولا بد لكل من به سعال أن يسعل، أفتأذن لي في السؤال؟ فقال له أبو عبد الله: سل إن شئت! فقال له ابن أبي العوجاء: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟ من فكر في هذا وقدر، علم أنه فعل غير حكيم ولا ذي نظر، فقل، فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبوك أسه ونظامه، فقال له الصادق عليه السلام: إن من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق فلم يستعذبه، وصار الشيطان وليه وربه، يورده مناهل الهلكة ولا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به خلقه ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته وجعله قبلة للمصلين له، فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال ومجمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض

بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر، وانتهى عما زجر، هو الله المنشئ للأرواح والصور، فقال له ابن أبي العوجاء: ذكرت يا أبا عبد الله فأحلت على غائب! فقال الصادق، عليه السلام: كيف يكون، يا ويلك!
غائبا، من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويعلم أسرارهم لا يخلو منه مكان ولا يشغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب من مكان، تشهد له بذلك آثاره وتدل عليه أفعاله،
والذي بعثه بالآيات المحكمة والبراهين الواضحة، محمد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، الذي جاءنا بهذه العبادة؟ فإن شككت في شئ من أمره فاسأل عنه أوضحه لك. فأبلس ابن أبي العوجاء ولم يدر؟ ما يقول،
فانصرف من بين يديه فقال لأصحابه، سألتكم أن تلتمسوا لي خمرة فألقيتموني على جمرة! قالوا له: أسكت فوالله لقد فضحتنا بحيرتك وانقطاعك وما رأينا أحقر منك اليوم في مجلسه! فقال: إلي تقولون هذا؟ إنه ابن من حلق رؤوس من ترون. وأومأ بيده إلى أهل الموسم.

احتجاجه على أبي شاكر الديصاني
من الزنادقة

جاء في الإرشاد: روي أن أبا بكر شاكر الديصاني وقف، ذات يوم، في مجلس أبي عبد الله، عليه السلام، فقال له: إنك لأحد النجوم الزواهر، وكان آباؤك بدورا بواهر، وأمهاتك عقيلات عباهر،
وعنصرك من أكرم العناصر، وإذا ذكر العلماء فعليك تثنى الخناصر،
خبرنا أيها البحر الزاخر، ما الدليل على حدوث العالم؟ فقال له أبو

عبد الله، عليه السلام: من أقرب الدليل على ذلك ما أظهره لك، ثم دعا ببيضة فوضعها في راحته وقال: هذا حصن ملموم داخله غرقئ رقيق، يطيف به فيه كالفضة السائلة والذهبة المائعة، أتشك في ذلك؟ قال أبو شاكر: لا شك فيه. قال أبو عبد الله (ع): ثم إنه ينفلق عن صورة كالطاووس، أدخله شئ غير ما عرفت؟ قال: لا قال: هذا الدليل على حدوث العالم. فقال أبو شاكر: دللت يا أبا عبد الله فأوضحت، وقلت فأحسنت، وذكرت فأوجزت، وقد علمت إنا لا نقبل إلا ما أدركناه بأبصارنا، أو سمعناه بآذاننا، أو ذقناه بأفواهنا، أو شممناه بآنافنا، أو لمسناه ببشرتنا فقال أبو عبد الله (ع): ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع في الاستنباط إلا بدليل كما لا تقطع الظلمة بغير مصباح، قال المفيد: يريد به، عليه السلام، أن الحواس بغير عقل لا توصل إلى معرفة الغائبات، وأن الذي أراه من حدوث الصورة معقول، بني العلم به على محسوس ا ه.

احتجاجه على الجعد بن درهم

في أمالي المرتضى، قيل: إن الجعد بن درهم جعل في قارورة، ماء وترابا، فاستحال دودا وهواما، فقال لأصحابه: أنا خلقت ذلك لأني كنت سبب كونه، فبلغ ذلك جعفر بن محمد، عليهما السلام، فقال: ليقل كم هي؟ وكم الذكران منه والإناث إن كان خلقه؟ وكم وزن كل واحدة منهن؟ وليأمر الذي سعى إلى هذا الوجه أن يرجع إلى غيره، فانقطع وهرب.

احتجاجه على الصوفية
فيما ينهون عنه من طلب الرزق
روى الحسن بن علي بن شعبة الحلبي في تحف العقول خبر دخول سفيان الثوري على الصادق (ع) الذي مر في فصل صفته ولباسه، عليه السلام، وقال: ثم أتاه قوم ممن يظهرون التزهد، ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف، فقالوا: إن صاحبنا حصر عن كلامك ولم تحضره حجة. فقال لهم: هاتوا حججكم فقالوا: إن حجتنا من كتاب الله قال لهم: فأدلوا بها فإنها أحق ما اتبع وعمل به قالوا: يقول الله تبارك وتعالى يخبر عن قوم من أصحاب النبي (ص): " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون " فمدح فعلهم وقال في موضع آخر: " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا " فنحن نكتفي بهذا. فقال
أبو عبد الله، عليه السلام: أخبروني أيها النفر، ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضل من ضل، وهلك من هلك من هذه الأمة؟ فقالوا: نعلم بعضه، فأما كله فلا. فقال لهم:
من ها هنا أتيتم. وكذلك أحاديث رسول الله (ص)، أما ما ذكرتم من أخبار الله إيانا في كتابه عن القوم الذي أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحا جائزا ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله، وذلك أن

الله جل وتقدس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخا لفعلهم، وكان نهيه تبارك وتعالى رحمة للمؤمنين ونظرا لكي لا يضروا بأنفسهم، وعيالهم منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعا، ومن ثم قال رسول الله (ص): خمس تمرات أو خمس أقراص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان، وهو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على القرابة وإخوانه المؤمنين، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله، وهو أخسها أجرا. وقال النبي، (ص)، للأنصاري حيث أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق، ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنونه مع المسلمين، ترك صبية صغارا يتكففون الناس. ثم قال: حدثني أبي أن النبي، (ص)، قال: إبدأ بمن تعول، الأدنى فالأدنى. ثم هذا ما نطق به الكتاب ردا لقولكم ونهيا عنه، مفروضا من الله العزيز الحكيم قال: " الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " أفلا ترون أن الله تبارك وتعالى أراد غير ما أراكم تدعون إليه؟ والمسرفون مذكورون في غير آية من كتاب الله، يقول: " إنه لا يحب المسرفين " فنهاهم عن الاسراف ونهاهم عن التقتير، لكن أمر بين أمرين، لا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له، للحديث الذي جاء عن النبي، (ص): أن أصنافا من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم: رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال ولم يشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده، ورجع يقعد في البيت ويقول يا رب

ارزقني ولا يخرج في طلب الرزق، فيقول الله جل وعز: عبدي أو لم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلا على أهلك، فإن شئت رزقتك، وإن شئت قترت عليك، وأنت معذور عندي؟ ورجل رزقه الله مالا كثيرا فأنفقه ثم أقبل يدعو: يا رب أرزقني! فيقول الله: ألم أرزقك رزقا واسعا أفلا اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك؟ ورجل يدعو في قطيعة رحم. ثم علم الله نبيه كيف ينفق، وذلك أنه كان عنده أوقية من ذهب، فكره أن تبيت عنده فتصدق بها وأصبح ليس عنده شئ، وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه، فلامه السائل واغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان رحيما رقيقا فأدب له نبيه بأمره إياه فقال: " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك كنت قد خسرت من المال.

فهذه أحاديث رسول الله، (ص)، يصدقها الكتاب، والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين ثم من قد علمتم في فضله وزهده سلمان وأبو ذر، فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسننه حتى يحضره عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا، وأنك لا تدري لعلك تموت اليوم أو غدا فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم علي الفناء؟ أو ما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت؟

وأما أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها، إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة، نحر لهم الجزور أو من الشاء، على قدر ما يذهب عنهم قرم اللحم، فيقسمه بينهم ويأخذ كنصيب أحدهم لا يفضل عليهم، ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهم رسول الله (ص)، ما قال. ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئا البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وأشيائهم، وتؤثرون به غيرهم على أنفسهم وعيالاتهم. أخبروني عن القضاة، أجور منهم حيث يفرضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال: أنا زاهد وأنه لا شئ لي؟ فإن قلتم جور ظلمتم أهل الإسلام، وإن قلتم بل عدل خصمتم أنفسكم.

أخبروني لو كان الناس كلهم كما تريدون زهادا لا حاجة لهم في متاع غيرهم، فعلى من كان يتصدق بكفارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزكاة؟ إذا كان الأمر على ما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئا من عرض الدنيا إلا قدمه وإن كان به خصاصة. فبئس ما ذهبتم إليه، وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله وسنة نبيه وأحاديثه التي يصدقها الكتاب المنزل! أو ردكم إياها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ، والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي. وأخبروني، أنتم أعلم أم سليمان بن داود، عليهما السلام حيث سأل الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده: فأعطاه الله ذلك، وكان يقول الحق ويعمل به ثم لم نجد الله عاب ذلك عليه ولا أحدا من المؤمنين، وداود قبله في ملكه وشدة سلطانه. ثم يوسف النبي حيث قال لملك مصر: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم! فكان من أمره الذي كان واختار مملكة الملك وما حولها إلى

اليمن، فكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم، وكان يقول الحق ويعمل به، ثم لم نجد أحدا عاب ذلك عليه، ثم ذو القرنين، عبدا أحب الله فأحبه، طوى له الأسباب وملكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان يقول بالحق ويعمل به ثم لم نجد أحدا عاب ذلك عليه، فتأدبوا أيها النفر بآداب الله للمؤمنين، واقتصروا على أمر الله ونهيه، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به، وردوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عند الله، وكونوا في طلب علم الناسخ من القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه، وما أحل الله فيه مما حرم، فإنه أقرب لكم من الجهل. ودعوا الجهالة لأهلها فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل.
وقد قال الله عز وجل: " وفوق كل ذي علم عليم. "
مما جاء عنه في التفسير
ما رواه الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في معالم العترة عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: " اتقوا الله وكونوا مع الصادقين. " ثم قال: إنهما محمد وعلي عليهما السلام.
وقال ابن شهرآشوب في المناقب: دخل عليه الحسن بن صالح بن حي فقال له:، ابن رسول الله ما تقول في قوله تعالى: " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " من أولوا الأمر الذين أمر الله بطاعتهم؟ قال العلماء. فلما خرجوا قال الحسن: ما صنعنا شيئا، إلا سألناه من هؤلاء العلماء؟ فرجعوا إليه فسألوه فقال: الأئمة منا أهل البيت.
وفي حلية الأولياء بسنده عن جعفر بن محمد في قوله تعالى: " إن

في ذلك لآيات للمتوسمين " قال: للمتفرسين. وفي صواعق ابن حجر: أخرج الثعلبي في تفسيره عن جعفر الصادق أنه قال: نحن حبل الله الذي قال الله فيه: " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " وروى الحسن ابن علي بن شعبة في تحف العقول أنه قال عليه الصلاة والسلام في قول الله " اتقوا الله حق تقاته " قال: يطيع فلا يعصي، ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر.

وروى الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن الحسن بن علي العسكري أنه قال جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام في قوله عز وجل: " اهدنا الصراط المستقيم " قال: يقول أرشدنا إلى الصراط المستقيم، أرشدنا إلى الطريق المؤدي إلى محبتك والمبلغ إلى دينك، والمانع من أن نتبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك.

خبر السارق المتصدق

ثم قال عليه السلام: فإن من اتبع هواه وأعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء العامة تعظمه وتصفه، فأحببت لقاءه من حيث لا يعرفني لأنظر مقداره ومحله، فرأيته قد أحدق به خلق كثير من غثاء العامة، فوقفت منتبذا عنهم متغشيا بلثام أنظر إليه وإليهم، فما زال يراوغهم حتى خالف طريقهم وفارقهم ولم يقر، فتفرقت عنه العوام لحوائجهم، وتبعته أقتفي أثره، فلم يلبث أن مر بخباز فتغفله فأخذ من دكانه رغيفين مسارقة، فتعجبت منه ثم قلت في نفسي: لعله معامله، ثم مر بعده بصاحب رمان فما زال به حتى تغفله فأخذ من عنده رمانتين مسارقة،

فتعجبت منه ثم قلت في نفسي: لعله معامله ثم أقول: وما حاجته إذا إلى المسارقة، ثم لم أزل أتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين يديه ومضى. وتبعته حتى استقر في بقعة من الصحراء فقلت له: يا عبد الله لقد سمعت بك وأحببت لقاءك فلقيتك، ولكني رأيت منك ما شغل قلبي، وإني أسألك عنه ليزول به شغل قلبي قال: ما هو؟ قلت رأيتك مررت بخباز وسرقت منه رغيفين، ثم بصاحب الرمان وسرقت منه رمانتين! فقال لي: قبل كل شئ حدثني من أنت! قلت: رجل من ولد آدم، من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم! قال: حدثني ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل بيت رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم! قال: أين بلدك؟ قلت المدينة! قال: لعلك جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام؟ قلت: بلى! فقال لي: فما ينفعك شرف أصلك مع جهلك بما شرفت به، وتركك علم جدك وأبيك لئلا تنكر ما يجب أن يحمد ويمدح عليه فاعله؟ قلت: وما هو؟ قال: القرآن، كتاب الله؟ قلت: وما الذي جهلت منه؟ قال قول الله تعالى " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة لا يجزى إلا مثلها " وأني لما سرقت الرغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت سيئتين فهذه أربعة سيئات، فلما تصدقت بكل واحد منها كان لي بها أربعون حسنة، فانتقص من أربعين حسنة أربعا بالأربع السيئات، بقي لي ست وثلاثون حسنة! قلت ثكلتك أمك! أنت الجاهل بكتاب الله أما سمعت الله يقول: " إنما يتقبل الله من المتقين " إنك لما سرقت رغيفين كانت سيئتين، ولما سرقت الرمانتين كانت أيضا سيئتين، ولما دفعتهما إلى غير صاحبهما

بغير أمر صاحبهما، كنت إنما أضفت أربع سيئات إلى أربع سيئات، ولم تضف أربعين حسنة إلى أربع سيئات! فجعل يلاحظني فانصرفت وتركته. قال الصادق عليه السلام: بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلون ويضلون، وهذا نحو تأويل معاوية لما قتل عمار بن ياسر فارتعدت فرائص خلق كثير وقالوا: قال رسول الله، (ص) عمار تقتله الفئة الباغية! فدخل عمر على معاوية وقال: قد هاج الناس واضطربوا، لقد قتل عمار! فقال معاوية: قتل عمار فماذا؟ قال: أليس قد قال رسول الله (ص) عمار تقتله الفئة الباغية؟ فقال له معاوية، " رخصت في قولك، أنحن قتلناه؟ إنما قتله علي بن أبي طالب لما ألقاه بين رماحنا " فاتصل ذلك بعلي فقال: إذن رسول الله قد قتل حمزة لما ألقاه بين رماح المشركين ثم قال الصادق (ع).

" طوبى للذين هم كما قال رسول الله (ص): يحمل هذا العلم من كل خلف، عدول ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

الباب الرابع

ما جاء عن جعفر الصادق (ع) من
أجوبة المسائل

روى الكليني في الكافي قال: " كتب أبو جعفر المنصور إلى محمد بن خالد، وكان عاملا على المدينة، أن يسأل أهل المدينة عن الخمس في الزكاة من المائتين كيف صارت وزن سبعة، ولم يكن هذا على عهد رسول الله (ص)؟ وأمره أن يسأل فيمن يسأل جعفر الصادق (ع)، فسأل أهل المدينة فقالوا:
أدركنا من كان قبلنا على هذا، فبعث إلى عبد الله بن الحسن وجعفر الصادق (ع) فأجاب عبد الله بن الحسن كما قال المستفتون من أهل المدينة فقال: ما تقول يا أبا عبد الله؟ (يقصد جعفر الصادق). فقال جعفر:
إن رسول الله (ص) قد جعل في كل أربعين أوقية أوقية، فإذا حسبت ذلك كان على وزن سبعة وقد كانت على وزن ستة، فكانت الدراهم خمسة دوانيق.

قال حبيب: فحسبناه فوجدناه كما قال فأقبل عليه عبد الله بن الحسن فقال:
من أين أخذت هذا؟ قال: قرأته في كتاب أمك فاطمة. ثم
انصرف فبعث إليه محمد بن خالد: ابعث إلي بكتاب فاطمة فأرسل
إليه أبو عبد الله (ع): إني إنما أخبرتك أني قرأته ولم أخبرك أنه عندي.
قال حبيب: فجعل محمد بن خالد يقول ما رأيت مثل هذا قط.
والمنصور كان يعلم أن جواب هذه المسألة ليس إلا عند جعفر بن
محمد، ولكنه جعل المسؤولين جماعة هو أحدهم، والمقصود هو وحده
لغرض غير خاف.
وفي حلية الأولياء بسنده: سئل الصادق (ع) لم حرم الله الربا؟
قال: لئلا يتمانع الناس المعروف. وقال الآبي في نثر الدرر: سئل
جعفر بن محمد لم صار الناس يكلبون في أيام الغلاء على الطعام، ويزيد
جوعهم على العادة في الرخص؟ قال: لأنهم بنو الأرض، فإذا قحطت
قحطوا، وإذا أخصبت أخصبوا! قال: وسئل، لم سمي البيت العتيق؟
فقال: لأن الله أعتقه من الطوفان. قال: وسئل عن فضيلة لأمير
المؤمنين عليه السلام لم يشركه فيها غيره فقال: فضل الأقربين بالسبق،
وسبق الأبعدين بالقرابة.
وروى الكليني في الكافي أن ابن العوجاء سأل هشام بن الحكم
فقال: أليس الله حكيما؟ قال: بلى وهو أحكم الحاكمين. قال: فأخبرني
عن قول الله عز وجل " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث

ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة " أليس هذا فرضا؟ قال: بلى. فأخبرني عن قوله عز وجل " ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل " أي حكيم يتكلم بهذا؟ فلم يكن عنده جواب، فرحل إلى المدينة إلى أبي عبد الله، عليه السلام، فقال: يا هشام في غير وقت حج ولا عمرة؟ قال: نعم! جعلت فداك لأمر أهمني، إن ابن أبي العوجاء سألني عن مسألة لم يكن عندي فيها شئ، قال: وما هي؟ فأخبرته بالقصة فقال أبو عبد الله (ع): أما قوله عز وجل " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة " يعني في النفقة. وأما قوله ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة " يعني في المودة. فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب قال: والله ما هذا من عندك.

وفي مناقب بن شهرآشوب عن تهذيب الطوسي: أتى الربيع أبا جعفر المنصور، وهو في الطواف فقال: يا أمير المؤمنين مات فلان مولاك البارحة، فقطع فلان رأسه بعد موته! فاستشاط وغضب وقال لابن شبرمة وابن أبي البلاد وعدة من القضاة والفقهاء: ما تقولون في هذا؟ فكل قال: ما عندنا في هذا شئ فكان يقول: أقتله أم لا؟ قالوا: ودخل جعفر الصادق في السعي. فقال المنصور للربيع: اذهب إليه وسله عن ذلك، فقال عليه السلام: قل له عليه مائة دينار. فبلغه ذلك فقال له: فاسأله كيف صار عليه مائة دينار؟ فقال أبو عبد الله (ع): في النطفة عشرون، وفي العلقة عشرون، وفي المضغة عشرون، وفي العظم عشرون، وفي اللحم عشرون ثم أنشأه خلقا آخر وهذا، وهو ميت، بمنزلته قبل أن ينفخ فيه الروح وهو في بطن أمه جنين، فرجع إليه

فأخبره بالجواب، فأعجبه ذلك فقال: ارجع إليه وسله الدية لمن هي: لورثته أم لا؟ فقال أبو عبد الله (ع): ليس لورثته فيها شئ لأنه أتى إليه في بدنه بعد موته، يحج بها أو يتصدق بها عنه، أو تصير في سبيل من سبل الخير.

وفي مناقب ابن شهرآشوب: دخل عمرو بن عبيد على الصادق (ع) وقرأ " إن تجتنبوا كبائر ما تنهون " وقال أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله (١) فقال: نعم يا عمرو! ثم فصلها بأن الكبائر:

(الشرك بالله) [إن الله لا يغفر أن يشرك به.]

(واليأس من روح الله) [ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.]

(وعقوق الوالدين) لأن العاق جبار شقي. [وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا.]

(وقتل النفس) [ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما.]

(وقذف المحصنات) [إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم.]

(وأكل مال اليتيم) [إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا.]

---

(١) وهي ما ورد الذم والتهديد عليه في الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة، ولذلك ذلك الصادق عليه السلام في بعضها التهديد من الكتاب وفي بعضها من السنة لعدم الفرق.

(والفرار من الزحف) [ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.]
(وأكل الربا) [الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.]
(والسحر) [ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق.]
(والزنا) [ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا. ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما.]
(واليمين الغموس) [إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.]
(والغلول) [ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة.]
(ومنع الزكاة) [والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.]
(وشهادة الزور) (والذين لا يشهدون الزور.)
(وكتمان الشهادة) (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه.)
(وشرب الخمر) لقوله عليه السلام: شارب الخمر كعابد وثن.
(وترك الصلاة) لقوله (ص): من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة الله وذمة رسوله.
(ونقض العهد وقطيعة الرحم) (الذين ينقضون عهد الله من بعد

ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون).
(وقول الزور) (واجتنبوا قول الزور.)
(والجرأة على الله) (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.)
(وكفران النعمة) (ولئن كفرتم إن عذابي لشديد.)
(وبخس الكيل والوزن) (ويل للمطففين.)
(واللواط) (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش.)
(والبدعة) لقوله عليه السلام: من تبسم في وجه مبتدع فقد أعان على هدم دينه.
قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه، وهو يقول: هلك من سلب تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم.
قال المفيد: والأخبار فيما حفظ عنه من الحكمة والبيان والحجة والزهد والموعظة وفنون العلم كلها أكثر من أن تحصى بالخطاب أو تحوى بالكتاب وفيما أثبتناه منها كفاية في الغرض الذي قصدناه.
(ثانيها) الحلم - قال الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في كتاب معالم العترة: وقع بين جعفر بن محمد وعبد الله بن حسن كلام في صدر يوم فأغلظ له عبد الله بن حسن في القول ثم افترقا وراحا إلى المسجد، فالتقيا على باب المسجد فقال أبو عبد الله جعفر بن محمد لعبد الله بن حسن كيف أمسيت يا أبا محمد؟ فقال: بخير، كما يقول المغضب!

فقال: يا أبا محمد أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ فقال: لا تزال تجئ بالشئ لا نعرفه؟ فقال: إني أتلو عليك به قرآنا؟ قال: وذلك أيضا؟ قال: نعم! قال: فهاته! قال: قول الله عز وجل: " والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب " قال: فلا تراني بعدها قاطعا رحما. وعن المناقب عن كتاب الروضة: أنه دخل سفيان الثوري على الصادق، عليه السلام، فرآه متغير اللون فسأله عن ذلك فقال: " كنت نهيت أن يصعدوا فوق البيت فدخلت، فإذا جارية من جواري ممن تربي بعض ولدي قد صعدت في سلم والصبي معها، فلما بصرت بي ارتعدت وتحيرت وسقط الصبي إلى الأرض فمات، فما تغير لوني لموت الصبي وإنما تغير لوني لما أدخلت عليها من الرعب، فما كان منه (ع) إلا أن قال لها: أنت حرة لوجه الله! لا بأس عليك " مرتين. ورواه صاحب غاية الاختصار ص ٦٢ بسنده إلى سفيان الثوري أو نحوه. وروى الكليني في الكافي بسنده أن أبا عبد الله، عليه السلام، بعث غلاما له في حاجة فأبطأ، فخرج أبو عبد الله عليه السلام، على أثره لما أبطأ عليه فوجده نائما، فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه، فلما انتبه قال له أبو عبد الله عليه السلام: يا فلان والله ما ذلك لك! تنام الليل والنهار؟ لك الليل ولنا منك النهار!

(ثالثها) الصبر - روى الصدوق في العيون بسنده عن أبي محمد عن آبائه عن موسى بن جعفر، عليهم السلام، قال: نعي إلى الصادق جعفر بن محمد، عليهما السلام، ابنه إسماعيل بن جعفر، وهو أكبر أولاده وهو يريد أن يأكل وقد اجتمع ندماؤه، فتبسم ودعا بطعامه وقعد مع ندمائه وجعل يأكل أحسن من أكله سائر الأيام، ويحث ندماءه

ويضع بين أيديهم ويعجبون منه أن لا يروا للحزن عليه أثرا، فلما فرغ قالوا: يا ابن رسول الله لقد رأينا عجبا! أصبت بمثل هذا الابن وأنت كما ترى! قال: وما لي لا أكون كما ترون وقد جاءني خبر أصدق الصادقين أني ميت وإياكم! إن قوما عرفوا الموت فجعلوه نصب أعينهم ولا ينكرون من يخطفه الموت منهم وسلموا لأمر خالقهم عز وجل.

وروى الكليني في الكافي بإسناده عن قتيبة الأعشى قال: أتيت أبا عبد الله (ع) أعود ابنا له فوجدته على الباب، فإذا هو مهتم حزين فقلت: جعلت فداك كيف الصبي؟ فقال: إنه لما به، ثم دخل فمكث ساعة ثم خرج إلينا وقد أسفر وجهه وذهب التغير والحزن، فطمعت أن يكون قد صلح الصبي، فقلت: كيف الصبي جعلت فداك؟ فقال: قد مضى الصبي لسبيله! فقلت: جعلت فداك لقد كنت وهو حي مغتما حزينا، وقد رأيت حالك الساعة، وقد مات، غير تلك الحال فكيف هذا؟ فقال: إنا أهل البيت إنما نجزع قبل المصيبة، فإذا وقع أمر الله رضينا بقضائه وسلمنا لأمره!

وبسنده عن العلاء بن كامل قال: كنت جالسا عند أبي عبد الله (ع) فصرخت الصارخة من الدار فقام أبو عبد الله (ع) ثم جلس فاسترجع وعاد في حديثه حتى فرغ منه ثم قال: إنا لنحب أن نعافى في أنفسنا وأولادنا وأموالنا، فإذا وقع القضاء فليس لنا أن نحب ما لم يحب الله لنا.

(رابعا) العبادة وكثرة ذكر الله – روى الكليني في الكافي بإسناده: أنه أحصي على الصادق (ع) في سجوده خمسمائة تسبيحة. وبسنده عن أبان بن تغلب: دخلت على الصادق (ع) فعددت له في الركوع والسجود

ستين تسبيحة. وروى الراوندي في الخرائج عن منصور الصيقل: أنه رأى أبا عبد الله (ع) ساجدا في مسجد النبي (ص) قال: فجلست حتى أطلت ثم قلت لأسبحن ما دام ساجدا فقلت سبحان ربي وبحمده استغفر ربي وأتوب إليه ثلثمائة مرة ونيفا وستين مرة، ثم رفع رأسه. الحديث.

(خامسها) مكارم الأخلاق - روى الزمخشري في ربيع الأبرار عن الشقراني قال: خرج العطاء أيام المنصور ومالي شفيع، فوقفت على الباب متحيرا، وإذا بجعفر بن محمد قد أقبل فذكرت له حاجتي، فدخل وخرج وإذا بعطائي في كمه فناولني إياه وقال إن الحسن من كل أحد حسن وأنه منك أحسن لمكانك منا، وإن القبيح من كل أحد قبيح وأنه منك أقبح لمكانك منا. قال سبط بن الجوزي: وإنما قال له ذلك لأنه كان يشرب الشراب، فوعظه على وجه التعريض وهذا من أخلاق الأنبياء ا. ه.

(سادسها) شدة الخوف من الله تعالى - روى الصدوق في الخصال والأمالي وعلل الشرائع عن ابن المتوكل عن السعد آبادي عن البرقي عن أبيه عن محمد بن زياد الأزدي قال: سمعت مالك بن أنس، فقيه المدينة، يقول: كنت أدخل إلى الصادق جعفر بن محمد، إلى أن قال: وكان رجلا لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: أما صائما، وأما قائما، وأما ذاكرا، وكان من عظماء العباد وأكابر الزهاد الذين يخشون الله عز وجل، وكان كثيرا الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله (ص) أخضر مرة وأصفر أخرى حتى ينكره من كان يعرفه، ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الاحرام

كان كلما هم بالتلبية انقطع الصوت في حلقه وكاد أن يخر من راحلته، فقلت: يا ابن رسول الله ولا بد أن تقول؟ فقال: يا ابن أبي عامر فكيف أجسر أن أقول لبيك وأخشى أن يقول الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك؟

(سابعها) الكرم والسخاء - في حلية الأولياء بسنده عن الهياج بن بسطام: كان جعفر بن محمد (ع) يطعم حتى لا يبقى لعياله شئ. وفي مطالب السؤول: كان (ع) يقول لا يتم المعروف إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره، وستره. ويأتي نظيره في حكمه وآدابه.

(ثامنها) كثرة الصدقة - روى الكليني في الكافي بسنده عن هشام ابن سالم قال: كان أبو عبد الله (ع) إذا اعتم وذهب من الليل شطره أخذ جرابا فيه خبز ولحم ودراهم، فحمله على عنقه ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسمه فيهم ولا يعرفونه، فلما مضى أبو عبد الله عليه السلام فقدوا ذلك، فعلموا أنه كان أبا عبد الله عليه السلام. ويأتي برواية أخرى في حكمه وآدابه.

(تاسعها) أن عنده مواريث الأنبياء - قد مر في الأمر الأول قوله عليه السلام: إن عندنا الجفر الأحمر وهو وعاء فيه سلاح رسول الله (ص) وأن عندنا الجفر الأبيض وهو وعاء فيه توراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود، وكتب الله الأولى. وقال المفيد في الإرشاد: روى أبو حمزة الثمالي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام سمعته يقول: ألواح موسى عليه السلام عندنا، وعصا موسى (ع) عندنا، ونحن ورثة النبيين.

قال: وروى معاوية بن وهب عن سعيد السمان قال كنت عند أبي

عبد الله جعفر بن محمد، عليهما السلام، إذ دخل عليه رجلان من الزيدية، إلى أن قال: وهما يزعمان أن سيف رسول الله (ص) عند عبد الله بن الحسن، فقال: كذبا والله! ما رآه عبد الله بن الحسن بعينيه ولا بواحدة من عينيه، ولا رآه أبوه، اللهم إلا أن يكون رآه عند علي بن الحسين، عليهما السلام، فإن كانا صادقين فما علامة في مقبضه وما أثر في موضع مضربه، فإن عندي سيف رسول الله (ص) وإن عندي لراية رسول الله (ص) ودرعه ولامته ومغفره، فإن كانا صادقين فما علامة درع رسول الله (ص)؟ وإن عندي لراية رسول الله (ص) المغلبة، وإن عندي ألواح موسى وعصاه، وإن عندي لخاتم سليمان، وإن عندي الطست التي كان يقرب موسى فيها القربان إلى أن قال: ولقد لبس أبي درع رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فخطت عليه الأرض خطيطا ولبستها أنا فكانت وكانت وقائمنا إذا لبسها ملأها. قال: وروى عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول عندي سلاح رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، لا أنازع فيه الحديث قال: وروى عمرو بن أبان سألت أبا عبد الله، عليه السلام، عما يتحدث الناس أنه، (ص)، دفع إلى أم سلمة، رحمة الله عليها، صحيفة مختومة فقال: إن رسول الله (ص) لما قبض ورث أمير المؤمنين عليا، عليه السلام، علمه وسلاحه وما هناك، ثم صار إلى الحسن، ثم صار إلى الحسين عليهما السلام، قال: فقلت ثم صار إلى علي ابن الحسين ثم إلى ابنه ثم انتهى إليك! قال: نعم.

(عاشرها) استجابة دعائه – قال المفيد في الإرشاد: روي أن داود بن علي بن عبد الله بن العباس قتل المعلى بن خنيس مولى جعفر

ابن محمد وأخذ ماله، فدخل عليه جعفر وهو يجر رداءه فقال له: قتلت مولاي وأخذت ماله، أما علمت أن الرجل ينام على الثكل ولا ينام على الحرب؟ أما والله لأدعون عليك! فقال له داود بن علي: أتهددنا بدعائك؟ كالمستهزئ بقوله، فرجع أبو عبد الله عليه السلام إلى داره، فلم يزل ليله كله قائما وقاعدا حتى إذا كان السحر سمع وهو يقول في مناجاته:

الدعاء على العدو

يا ذا القوة القوية، ويا ذا المحال الشديد، ويا ذا العزة التي كل خلق لها ذليل، اكفني هذا الطاغية وانتقم لي منه!

فما كانت إلا ساعة حتى ارتفعت الأصوات بالصياح وقيل: مات داود بن علي. وأشار بن حجر في صواعقه إلى هذه الواقعة فقال: وقتل بعض الطغاة مولاه فلم يزل يصلي ثم دعا عليه عند السحر، فسمعت الأصوات بموته.

وعن كتاب نثر الدرر للآبي أنه لما قال الحكم بن عباس الكلبي:

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة * ولم أر مهديا على الجذع يصلب
وقستم بعثمان عليا سفاهة * وعثمان خير من علي وأطيب

فبلغ قوله أبا عبد الله (ع) فرفع يديه إلى السماء وهما يرعشان فقال:

اللهم إن كان عبدك كاذبا فسلط عليه كلبك! فبعثه بنو أمية إلى الكوفة فافترسه الأسد، واتصل خبره بالصادق (ع) فخر ساجدا وقال:
الحمد لله الذي أنجزنا ما وعدنا. وأورد ابن حجر هذا الخبر في صواعقه فقال: ولما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي:
صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة * ولم نر مهديا على الجذع يصلب
قال اللهم سلط عليه كلبا من كلابك، فافترسه الأسد.

الباب الخامس

أخبار جعفر الصادق (ع)

نثبت في هذا الباب نبذة من أخبار الإمام الصادق (ع).

جاء في كتاب " نثر الدرر " للآبي:

وقف أهل مكة وأهل المدينة بباب المنصور، فأذن الربيع لأهل مكة قبل أهل المدينة، فقال جعفر: عش والله طار خياره وبقي شراره.

وقيل: إن أبا جعفر لا يلبس منذ صارت إليه الخلافة إلا الخشن من الملبس ولا يأكل إلا الجشب من الطعام فقال جعفر: يا ويحه! مع ما قد مكن الله له من السلطان وجبى له من الأموال؟ فقيل له: الحمد لله الذي حرمه من دنياه ماله، وترك دينه.

وفي مطالب السؤول: نقل أنه كان رجل من أهل السواد يلزم جعفرا، ففقده فسأل عنه فقال له رجل يريدان يستنقص به، إنه نبطي، فقال جعفر عليه السلام: أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه والناس في آدم مستوون، فاستحى ذلك القائل. وقال الآبي في " نثر الدرر ":

مر به رجل وهو يتغدى، فلم يسلم، فدعاه إلى الطعام فقيل له.
ألسنة أن يسلم ثم يدعى وقد ترك السلام على عمد! فقال هذا فقه عراقي
فيه بخل ا ه.
وإذا صح حديث، أنه لا يدعى إلى الطعام إذا لم يسلم يمكن توجيه
هذا الحديث باختلاف الجهات في الاستحباب وعدمه، كما يشير إليه
قوله (ع): فيه بخل.
وفي حلية الأولياء بسنده قال جعفر بن محمد (ع): قال موسى (ع):
يا رب أسألك أن لا يذكرني أحد إلا بخير! قال الله له: ما فعلت
ذلك لنفسي.
وفي حلية الأولياء بسنده، عن عبد الله بن أبي يعقوب عن جعفر بن محمد
قال: بني الإنسان على خصال، فمهما بني عليه فإنه لا يبنى على الخيانة
والكذب.
والمراد أنه يطبع على بعض الأخلاق السيئة ولكنه لا يطبع على
الخيانة والكذب، كما في حديث آخر، بل يكون ذلك اكتسابا لا من طبعه
الأصلي. وعن جعفر بن محمد: الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء
قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم.
روى أبو نعيم في " الحلية " عن مالك بن أنس عن علي بن الحسين
قال: لما قال أبو سفيان الثوري لا أقول حتى تحدثني. قال له أنا
أحدثك، وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان! إذا أنعم الله عليك بنعمة
فأحببت لقاءها ودوامها، فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله عز وجل
قال في كتابه:
" لئن شكرتم لأزيدنكم "

وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله تعالى قال في كتابه:
" استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم نهارا ".
وروي أنه قال لسفيان الثوري:
يا سفيان إذا أحزنك أمر من سلطان أو غيره فأكثر من قول " لا حول ولا قوة إلا بالله " فإنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة. فعقد سفيان بيده وقال: ثلاث وأي ثلاث! فقال جعفر: عقلها والله أبو عبد الله ولينفعنه الله بها.
روى الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في معالم العترة عن جعفر بن محمد: من لم يكن لأخيه كما يكون لنفسه لم يعط الإخوة حقها، ألا ترى كيف حكى الله تعالى في كتابه أنه يفر المرء من أبيه والأخ من أخيه، ثم ذكر في ذلك الموقف شفقة الأصدقاء وقال: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم.
وروى صاحب العترة: أن جابر بن عون قال. إن رجلا قال لجعفر: أنه وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر وأني أريد أن أتركه فيقال لي إن تركك له ذل. فقال له جعفر: إن الذليل هو الظالم.

أخبار جعفر الصادق (ع)
مع دعاة بني العباس

مر بنا عند ذكر إخباره بالمغيبات خبر اجتماع بني هاشم بالأبواء وقول الصادق (ع) إن السفاح وإخوته وأبناءهم تصير إليهم الخلافة.

وفي " الأمالي ": روي أن دعاة خراسان صاروا إلى أبي عبد الله الصادق (ع) فقالوا له أردنا ولد محمد بن علي فقال: أولئك بالسراة ولست بصاحبكم! فقالوا: لو أراد الله بنا خيرا كنت صاحبنا.

فقال المنصور بعد ذلك لأبي عبد الله: أردت الخروج علينا؟ فقال: نحن ندل عليكم في دولة غيركم فكيف نخرج عليكم في دولتكم؟

وروي أنه لما أزمع السفاح أن يحتمي عند أبي سلمة الحلال الكوني صاحب عائلته وجاءه، فأراد أبو سلمة ستر أمرهم وعزم أن يجعلها شورى بين ولد علي والعباس حتى يختاروا هم من أرادوا ثم قال: أخاف أن لا يتفقوا. ثم عزم أن يعزل الأمر إلى ولد علي من الحسن والحسين، فكتب إلى ثلاثة نفر منهم. جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، وعمر بن علي بن الحسين، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، فبدأ الرسول بجعفر بن محمد فلقيه ليلا وأعلمه أن معه كتابا إليه من أبي سلمة فقال: وما أنا وأبو سلمة هو شيعة لغيري؟ فقال: تقرأ الكتاب وتجيب عليه بما رأيت، فقال جعفر لخادمه: قدم مني السراج، فقدمه

فوضع عليه كتاب أبي سلمة فأحرقه. فقال: ألا تجيبه؟ فقال: قد رأيت الجواب، فخرج من عنده وأتى عبد الله بن الحسن المثنى فقبل كتابه وركب إلى جعفر بن محمد فقال: أي أمر جاء بك يا أبا محمد لو أعلمتني لجئتك؟ فقال: أمر يجل عن الوصف! قال: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبي سلمة يدعوني للأمر ويرى أني أحق الناس به، وقد جاءته شيعتنا من خراسان، فقال له جعفر الصادق عليه السلام: ومتى صاروا شيعتك؟ أأنت وجهت أبا مسلم إلى خراسان وأمرته بلبس السواد؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه ونسبه؟ كيف يكونون من شيعتك وأنت لا تعرفهم ولا يعرفونك؟ فقال له عبد الله، إن كان هذا الكلام منك لشئ؟ فقال جعفر: قد علم الله أني أوجب على نفسي النصح لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمنين نفسك الأباطيل، فإن هذه الدولة ستتم لهؤلاء القوم، ولا تتم لأحد من آل أبي طالب، وقد جاءني مثل ما جاءك، فانصرف غير راض بما قاله وأما عمر بن علي بن الحسين فرد الكتاب وقال: ما أعرف كاتبه فأجيبه. فهذا الذي صدر من الصادق (ع) سواء أكان من علم أخذه عن آبائه عن جده الرسول (ص) عن الله تعالى - كما نعتقده -، أو من بعد نظر وصواب في عواقب الأمور - كما يراه غيرنا - يدل على عظم قدر الصادق (ع) وإصابة رأيه - على الأقل - وعلى قصور نظر عبد الله في اغتراره بذلك، وعدم قبوله النصح من الصادق واتهامه إياه بعد ما أقام له الحجة الواضحة على صحة ما أشار به، ولله أمر هو بالغه. وفي قوله: لو أعلمتني لجئتك، دليل على كرم أخلاقه ومحافظته على حق الرحم مع مزاحمة عبد الله له فيما ليس له بأهل، وما يأتي عند

ذكر وفاته من إيصائه إلى خمسة: أحدهم المنصور، والباقون محمد بن سليمان والي المدينة، ووالده عبد الله وموسى وحميدة جاريته، أدل دليل على بعد نظره بتخليص وصيه الحقيقي من القتل بإشراكه في الوصية مع جماعة أحدهم فرعون بني العباس.

وروى أبو الفرج الأصبهاني بإسناده إلى الحسين بن زيد بن علي قال: إني لواقف بين القبر والمنبر إذ رأيت بني حسن يخرج بهم من دار مروان يراد بهم الربذة، فأرسل إلي جعفر بن محمد: ما وراءك؟ قلت: رأيت بني حسن يخرج بهم في محامل فقال: اجلس، فجلست فدعا غلاما له ثم دعا ربه كثيرا ثم قال لغلامه: إذهب فإذا حملوا فائت فأخبرني. فأتاه الرسول فقال: قد أقبلوا، فقام جعفر وراء ستر شعر أبيض

وإذا بعبد الله بن حسن وإبراهيم بن حسن وجميع أهلهم، كل واحد منهم في قيده، فلما نظر إليهم جعفر بن محمد هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته ثم أقبل علي فقال: يا أبا عبد الله، والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا، والله ما وفت الأنصار لرسول الله (ص) بما أعطوه من البيعة على العقبة على أن يمنعوه وذريته بما يمنعون منه أنفسهم وذراريهم، فوالله ما وفوا له حتى خرج من بين أظهرهم.

أخبار من المنصور الدوانيقي

في مطالب السؤول: حدث عبد الله بن الفضل بن الربيع عن أبيه قال: حج المنصور سنة ١٤٧ فقدم المدينة وقال للربيع ابعث إلى جعفر بن محمد من يأتينا به، قتلني الله إن لم أقتله! فتغافل الربيع عنه لينساه ثم أعاد ذكره للربيع وقال: ابعث من يأتينا به، فتغافل عنه

ثم أرسل إلى الربيع رسالة قبيحة أغلظ له فيها وأمره أن يبعث من يحضر جعفرا، ففعل، فلما أتاه قال له الربيع: يا أبا عبد الله أذكر الله فإنه قد أرسل إليك بما لا دافع له غير الله. فقال جعفر: لا حول ولا قوة إلا بالله! ثم إن الربيع أعلم المنصور بحضوره، ودخل جعفر عليه فأوعده وأغلظ له وقال: أي عدو الله! أتخذك أهل العراق إماما يجبون إليك زكاة أموالهم وتلحد في سلطاني وتبغيه الغوائل؟ قتلني الله إن لم أقتلك! فقال له يا أمير المؤمنين: إن سليمان (ع) أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ! فلما سمع ذلك المنصور منه قال: إلي وعندي أبا عبد الله! أنت البرئ الساحة، السليم الناحية، القليل الغائبة، جزاك الله من ذي رحم أفضل ما جزى ذوي الأرحام عن أرحامهم، ثم تناول يده فأجلسه معه على فراشه، ثم قال: علي بالطيب، فأتى بالغالية فجعل يغلف لحية جعفر بيده حتى تركها تقطر ثم قال: قم في حفظ الله وكلاءته، ثم قال: يا ربيع ألحق أبا بيد الله جائزته وكسوته، انصرف أبا عبد الله في حفظه وكنفه، فانصرف.
قال الربيع: ولحقته فقلت له: إني قد رأيت قبلك ما لم تره ورأيت بعدك ما لا رأيته قلت يا أبا عبد الله حين دخلت؟ قال قلت:
دعاء لدفع الظالم
اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك فلا أهلك، وأنت رجائي. اللهم أنت أكبر وأجل

مما أخاف وأحذر، اللهم بك أدفع في نحره واستعيذ بك من شره. وفي رواية: واكنفني بكنفك الذي لا يرام ولا يضام.

صلة الرحم تطيل العمر

وروى الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في كتاب معالم العترة عن جعفر بن محمد (ع) قال: لما دفعت إلى أبي جعفر المنصور انتهرني وكلمني بكلام غليظ، ثم قال لي: يا جعفر قد علمت بفعل محمد بن عبد الله الذي تسمونه النفس الزكية وما نزل به، وإنما انتظر الآن أن يتحرك منكم أحد فألحق الكبير بالصغير، فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب، عليهم السلام، أن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيمدها الله تعالى إلى ثلاث وثلاثين سنة، وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فيبترها الله تعالى ثلاث سنين، فقال لي: والله لقد سمعت هذا من أبيك! قلت: نعم، حتى رددها علي ثلاثا، ثم قال انصرف.

وروى الشيخ في الأمالي عن جماعة عن المفضل عن إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي عن أبيه عن عمه عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: بعث أبو جعفر المنصور إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، عليهما السلام، وأمر بفرش فطرحت إلى جانبه فأجلسه عليها ثم قال: علي، بمحمد، علي بالمهدي، يقول ذلك مرارا، فقيل له: الساعة الساعة يأتي

يا أمير المؤمنين! ما يحبسه إلا أن يتحيز، فما لبث أن وافى وقد سبقته رائحته، فأقبل المنصور على جعفر فقال: يا أبا عبد الله حديث حدثتنيه في صلة الرحم، أذكره يسمعه المهدي، قال: نعم، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي عليهم السلام قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين ثم تلا " يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " قال: هذا حسن يا أبا عبد الله وليس إياه أردت قال أبو عبد الله: نعم، حدثني أبي عن أبيه عن جده علي (ع) قال رسول الله (ص): صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير أخيار. قال: هذا حسن يا أبا عبد الله وليس هذا أردت، فقال أبو عبد الله: نعم، حدثني أبي عن أبيه عن جده عن علي (ع) قال رسول الله (ص): صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء. قال المنصور: نعم، هذا أردت.

وقال الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في كتاب معالم العترة الطاهرة: روى إسحاق بن جعفر بن محمد عن أبيه جعفر بن محمد، حدث أبو الحسين يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب، صلوات الله عليهم، قال: كتب إلي عباد بن يعقوب يخبرني عن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخل جعفر بن محمد على أبي جعفر المنصور فتكلم، فما خرج من عنده أرسل إلى جعفر بن محمد فرده، فلما رجع حرك شفتيه بشئ فقيل له: ما قلت؟ قال قلت:

دعاء لأهل الظالم

(اللهم إنك تكفي من كل شئ ولا يكفي منك شئ فاكفنيه)

فقال: ما يقرك عندي؟ فقال له أبو عبد الله: قد بلغت سنا لم يبلغها أحد من آبائي في الإسلام، وما أراني أصبحك إلا قليلا، ما أرى هذه السنة تتم لي، قال: فإن بقيت؟ قال: ما أراني أبقى. قال أبو جعفر: احسبوا له، فحسبوا فمات في شوال.

قال المفيد في الإرشاد بعد ما ذكر رواية الناس من آيات الله الظاهرة على يده مما يدل على إمامته: فمن ذلك ما رواه نقلة الآثار من خبره عليه السلام مع المنصور لما أمر الربيع بإحضاره فأحضره، فلما بصر به المنصور قال: قتلني الله إن لم أقتلك! أتلحد في سلطاني وتبغيني الغوائل؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: والله ما فعلت ولا أردت، فإن كان بلغك فمن كاذب، وإن كنت فعلت فقد ظلم يوسف فغفر، وابتلي أيوب فصبر، وأعطي سليمان فشكر، فهؤلاء أنبياء الله وإليهم يرجع نسبك! فقال له المنصور: أجل ارتفع ها هنا، فارتفع فقال: إن فلان بن فلان أخبرني عنك بما ذكرت! فقال: أحضروه، فأحضر الرجل فقال له المنصور: سمعت ما حكيت عن جعفر، فقال: نعم! فقال له أبو عبد الله فاستحلفه على ذلك، فقال له المنصور: أتحلف؟ قال: نعم، وابتدأ باليمين. فقال له أبو عبد الله: دعني يا أمير المؤمنين أحلفه أنا. فقال له: افعل. فقال أبو عبد الله للساعي: قل برئت من

حول الله وقوته، والتجأت إلى حولي وقوتي، لقد فعل كذا وكذا جعفر، وقال كذا وكذا جعفر، فامتنع هنيهة ثم حلف بها، فما برح حتى ضرب برجله. فقال أبو جعفر: جروه برجله واخرجوه، لعنه الله! قال الربيع: وكنت رأيت جعفر بن محمد حين دخل على المنصور يحرك شفتيه، وكلما حركهما سكن غضب المنصور حتى أدناه منه ورضي عنه، فلما خرج أبو عبد الله من عند أبي جعفر اتبعته فقلت: إن هذا الرجل كان من أشد الناس غضبا عليك، فلما دخلت عليه كنت تحرك شفتيك وكلما حركتهما سكن غضبه فبأي شئ كنت تحركهما؟ قال: بدعاء جدي الحسين بن علي، عليهما السلام، قلت: جعلت فداك وما هذا الدعاء؟ قال:

دعاء لكشف الغمة

يا عدتي عند شدتي ويا غوثي عند كربتي، احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بركتك الذي لا يرام. قال الربيع: فحفظت هذا الدعاء فما نزلت بي شدة قط إلا دعوت به ففرج عني. وقلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد: لم منعت الساعي أن يحلف بالله؟ قال: كرهت أن يراه الله يوحده ويمجده، فيحلم عنه ويؤخر عقوبته فاستحلفته بما سمعت، فأخذه الله تعالى أخذة رابية.

وروى الصدوق في عيون أخبار الرضا (ع) عن أحمد بن محمد بن الصقر وعلي بن محمد بن مهرويه معا عن عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه عن الحسن بن الفضل عن الرضا عن أبيه، صلوات الله عليهما،

قال: أرسل أبو جعفر الدوانيقي إلى جعفر بن محمد ليقتله، وطرح له سيفا ونطعا، قال: يا ربيع إذا أنا كلمته ثم ضربت بإحدى يدي على الأخرى فاضرب عنقه! فلما دخل جعفر بن محمد ونظر إليه من بعيد تحرك أبو جعفر من على فراشه وقال: مرحبا وأهلا بك يا أبا عبد الله! ما أرسلنا إليك إلا لنقضي دينك ونقضي ذمامك! ثم سأله عن أهل بيته وقال: قد قضى الله حاجتك ودينك وأخرج جائزتك، يا ربيع لا تمضي ثلاثة أيام حتى يرجع جعفر إلى أهله. فلما خرج قال له الربيع: يا أبا عبد الله أرأيت السيف والنطع؟ إنما وضع ذلك لك، فأي شئ رأيتك تحرك به شفتيك؟ قال قلت:

حسبي الرب من المربوبين، وحسبي الخالق من المخلوقين، وحسبي الرزاق من المرزوقين، وحسبي الله رب العالمين، حسبي من هو حسبي، حسبي من لم يزل حسبي، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم!

وروى الشيخ الطوسي في الأمالي عن جماعة عن أبي المفضل عن أحمد بن محمد بن عيسى العراد عن محمد بن الحسن بن شمون عن الحسن بن الفضل بن الربيع حاجب المنصور قال: حدثني أبي عن جدي الربيع قال: دعاني المنصور يوما فقال: يا ربيع أحضر جعفر بن محمد، والله لأقتلنه! فوجهت إليه فلما وافى قلت: يا ابن رسول الله إن كان لك وصية أو عهد تعهده فافعل! فقال: استأذن لي عليه، فدخلت إلى المنصور فأعلمته موضعه فقال: أدخله، فلما وقعت عين جعفر على المنصور رأيته يحرك شفتيه بشئ لم أفهمه، فلما سلم على المنصور نهض إليه فاعتنقه

وأجلسه إلى جانبه وقال له: ارفع حوائجك، فأخرج رقاعا لأقوام وسأل في آخرين، فقضيت حوائجه، فقال المنصور: إرفع حوائجك في نفسك فقال له جعفر: لا تدعني حتى أجيئك. فقال له المنصور: ما إلى ذلك سبيل. وأنت تزعم للناس، يا أبا عبد الله، إنك تعلم الغيب. فقال جعفر: من أخبرك بهذا؟ فأومأ المنصور إلى شيخ قاعد بين يديه، فقال جعفر للشيخ: أنت سمعتني أقول هذا؟ قال الشيخ: نعم، قال جعفر للمنصور: أيحلف يا أمير المؤمنين؟ فقال له المنصور: احلف. فلما بدأ في اليمين قال جعفر للمنصور: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين أن العبد إذا حلف اليمين التي ينزه الله عز وجل فيها، وهو كاذب، امتنع الله عز وجل عن عقوبته عليها في عاجلته بسبب تنزيه الله عز وجل فيها، ولكني أنا أستحلفه فقال المنصور: ذلك لك! فقال جعفر للشيخ: قل أبرأ إلى الله من حوله وقوته وألجأ إلى حولي وقوتي إن لم أكن سمعتك تقول هذا القول! فتلكأ الشيخ، فرفع المنصور عمودا كان في يده وقال: والله لئن لم تحلف لأعلونك بهذا العمود! فحلف الشيخ، فما أتم اليمين حتى دلع لسانه كما يدلع الكلب ومات لوقته. ونهض جعفر (ع). قال الربيع: فقال لي المنصور ويلك! اكتمها الناس لا يفتتنون، قال الربيع: فسألت جعفر، فقلت له يا ابن رسول الله، إن المنصور كان قد هم بأمر عظيم، فلما وقعت عينك عليه وعينه عليك زال ذلك، فقال: يا ربيع إني رأيت البارحة رسول الله (ص) في النوم فقال لي: يا جعفر خفته؟ فقلت: نعم يا رسول الله، فقال لي: إذا وقعت عينك عليه فقل:

بسم الله أستفتح، وبسم الله أستنجح، اللهم ذلل لي صعوبة أمري وكل صعوبة، وسهل لي حزونة أمري وكل حزونة، واكفني مؤونة أمري كل أمري.
وروى السيد علي بن طاوس في مهج الدعوات أن المنصور استدعاه سبع مرات ليقتله فينجيه الله منه، وأورد في ذلك عدة روايات.

الباب السادس

أخبار جعفر (ع) مع الإمام
أبي حنيفة

في مناقب ابن شهرآشوب: جاء أبو حنيفة ليسمع منه وخرج أبو عبد الله يتوكأ على عصا، فقال له أبو حنيفة: يا ابن رسول الله لم تبلغ من السن ما تحتاج معه إلى العصا! قال: هو كذلك ولكنها عصا رسول الله (ص) أردت التبرك بها، فوثب أبو حنيفة إليه وقال له: أقبلها يا ابن رسول الله فحسر أبو عبد الله عن ذراعيه وقال له: والله لقد علمت أن هذا بشر رسول الله (ص) وأن هذا من شعره لما قبلته وتقبل عصا؟

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا الحسن بن محمد حدثنا سعيد بن عنبسة حدثنا عمرو بن جميع قال: دخلت على جعفر بن محمد، أنا وابن أبي ليلى وأبو حنيفة، فقال لابن أبي ليلى: من هذا معك؟ قال: هذا رجل له بصر ونفاذ في كل أمر، قال: لعله يقيس أمر الدين برأيه؟ قال: نعم! فقال جعفر لأبي حنيفة: ما اسمك؟ قال: نعمان، قال: يا نعمان هل قست رأسك بعد؟ قال:

كيف أقيس رأسي؟ قال: ما أراك تحسن شيئا! هل علمت ما الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين، والحرارة في المنخرين، والعذوبة في الشفتين؟ قال: لا. قال: ما أراك تحسن شيئا! فهل علمت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟ فقال ابن أبي ليلى: يا ابن رسول الله أخبرنا بهذه الأشياء التي سألته عنها، فقال: أخبرني أبي عن جدي أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله تعالى بمنه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنهما شحمتان ولولا ذلك لذابتا، وأن الله تعالى بمنه وفضله ورحمته لابن آدم جعل المرارة في الأذنين حجابا من الدواب، فإن دخلت الرأس دابة والتمست الدخول إلى الدماغ، وذاقت المرارة التمست الخروج، وأن الله تعالى بمنه وفضله ورحمته لابن آدم جعل الحرارة في المنخرين يستنشق بهما الريح ولولا ذلك لأنتن الدماغ، وأن الله تعالى بمنه وكرمه ورحمته لابن آدم جعل العذوبة في الشفتين يجد بهما استطعام كل شئ ويسمع الناس بهما حلاوة منطقه. قال: فأخبرني عن الكلمة التي أولها كفر وآخرها إيمان، فقال: إذا قال العبد لا إله فقد كفر، فإذا قال إلا الله فهو إيمان! ثم أقبل على أبي حنيفة فقال: يا نعمان حدثني أبي عن جدي أن رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قال: أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس. قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين! فمن قاس برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه تبعه بالقياس.

وروى أبو نعيم في الحلية قال: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا أحمد بن زنجويه، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن عبد الله

القرشي بمصر حدثنا عبد الله بن شبرمة قال: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد، وذكر مثله ثم قال: زاد ابن شبرمة في حديثه: ثم قال جعفر: أيهما أعظم، قتل النفس أو الزنا؟ قال: قتل النفس. قال: فإن الله عز وجل قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة. ثم قال: أيهما أعظم، الصلاة أم الصوم؟ قال: الصلاة. قال: فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فكيف ويحك يقوم لك قياسك؟ اتق الله ولا تقس الدين برأيك!

وروى هذا الحديث الشيخ أبو جعفر الطوسي في أماليه وصاحب الروضة بإسنادهما، وفي روايتهما زيادة عن رواية الحلية قال في بيان علة قبول الشاهدين في القتل وعدم قبول أقل من أربعة في الزنا مع أن القتل أعظم: أن الشهادة على الزنا شهادة على اثنين وفي القتل على واحد لأن القتل فعل واحد والزنا فعلان. وقال في علة قضاء الحائض الصوم وعدم قضائها الصلاة مع كون الصلاة أعظم: لأنها تخرج إلى صلاة فتداومها ولا تخرج إلى صوم (يعني أن الصلاة تكون دائما والصوم لا يكون إلا مرة في السنة) ثم قال: المرأة وهي ضعيفة لها سهم واحد والرجل وهو قوي له سهمان! ثم قال: لأن الرجل يجبر على الإنفاق على المرأة ولا تجبر المرأة على الإنفاق على الرجل. ثم قال: البول أقذر أم المني؟ قال: البول. قال: يجب على قياسك أنه يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله الغسل من المني دون البول، ثم قال: لأن المني اختيار ويخرج من جميع الجسد ويكون في الأيام، والبول ضرورة ويكون في اليوم مرات. قال أبو حنيفة: كيف يخرج من جميع الجسد والله يقول: " يخرج من بين الصلب والترائب " فقال أبو عبد الله فهل قال

لا يخرج من غير هذين الموضعين؟ ثم قال: لم لا تحيض المرأة إذا حبلت؟ قال: لا أدري. قال: حبس الله الدم فجعله غذاء للولد. ثم قال: ما ترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة، ثم سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد، فسقط البيت عليهم فقتل المرأتين وبقي الغلامان، أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك، وأيهما الوارث وأيهما الموروث؟ ثم قال: فما ترى في رجل أعمى فقأ عين صحيح، وفي أقطع قطع يد رجل، فكيف يقام عليهما الحد؟ ثم قال: فأخبرني عن قول الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام حيث بعثهما إلى فرعون " لعله يتذكر أو يخشى " وأنت تعلم أن لعل منك، شك؟ قال: نعم. قال: فهل هي من الله شك إذا قال لعله؟ ثم قال: وأخبرني عن قوله تعالى " ومن دخله كان آمنا " أي موضع هو؟ قال: بيت الله الحرام. فقال: نشدتكم بالله هل تعلمون أن عبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟ قال: فاعفني يا ابن رسول الله! قال: فأنت الذي تقول سأنزل مثل ما أنزل الله؟ قال: أعوذ بالله من هذا القول! قال: إذا سئلت فما تصنع؟ قال: أجيب عن الكتاب أو السنة أو الاجتهاد. قال: إذا اجتهدت من رأيك وجب على المسلمين قبوله؟ قال: نعم. قال: وكذلك وجب قبول ما أنزل الله فكأنك قلت أنا أنزل مثلما أنزل الله اه.

وقال ابن شهرآشوب في المناقب: ذكر أبو القاسم البغار في مسند أبي حنيفة قال الحسن بن زياد: سمعت أبا حنيفة وقد سئل من أفقه من رأيت؟ قال: جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إلي فقال: إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيئ له من مسائلك الشداد، فهيأت له أربعين مسألة، ثم بعث إلى أبو جعفر وهو بالحيرة، فأتيته فدخلت عليه

وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت به دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلمت عليه فأومأ إلي فجلست، ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، قال: نعم أعرفه. ثم التفت إلي فقال: ألق على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت ألقي عليه ويجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا: فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعا حتى أتيت على الأربعين مسألة فما أخل منها بشئ، ثم قال أبو حنيفة: أليس أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟

وروى قاضي القضاة أبو المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي المتوفى سنة ٦٦٥ في كتاب جامع مسانيد أبي حنيفة، الذي جمعه من خمسة من مسانيد أبي حنيفة، وهي الكتب التي جمعوا فيها ما رواه أبو حنيفة، وأكثرها مكررات في الفصل الرابع الذي هو في الفضائل من الباب الثالث الذي في الإيمان، المطبوع بحيدر آباد الدكن شنة ١٣٣٢ في صفحة ٢٢٢، عن الحافظ طلحة بن محمد في مسنده عن أبي العباس أحمد بن محمد بن سعيد عن جعفر بن محمد بن الحسين الحازمي، عن أبي نجيع إبراهيم بن محمد بن الحسين عن الحسن بن زياد عن أبي حنيفة أنه قال: جعفر بن محمد أفقه من رأيت! ولقد بعث إلي جعفر المنصور إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيئ له مسائل شدادا " فلخصت أربعين مسألة وبعثت بها إلى المنصور بالحيرة، ثم أبرد إلي (١) فوافيته على سريره وجعفر بن محمد عن يمينه، فتداخلني من جعفر هيبة لم أجدها من المنصور، فأجلسني ثم التفت إلى جعفر قائلا:

----

(١) أرسل إلي بريدا.

يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، فقال: نعم أعرفه، ثم قال المنصور: سله ما بدا لك يا أبا حنيفة، فجعلت أسأله ويجيب بالإجابة الحسنة ويفحم حتى أجاب عن أربعين مسألة، فرأيته أعلم الناس باختلاف الفقهاء، فلذلك أحكم أنه أفقه من رأيت.

وفي مرآة الجنان لليافعي: ذكر بعض المؤرخين أنه سأل أبا حنيفة فقال: ما تقول في محرم كسر رباعية ظبي؟ فقال: يا ابن رسول الله ما أعلم ما فيه، فقال له: أنت من الدهاة ولا تعلم أن الظبي لا يكون له رباعية وهو ثني أبدا؟ قال: يعني من الدهاة في قوة الفهم وجودة النظر ا ه.

وفي كنز الفوائد للكراجكي: ذكروا أن أبا حنيفة أكل طعاما مع الإمام الصادق جعفر بن محمد، فلما رفع الصادق يده من أكله قال: الحمد لله رب العالمين، اللهم هذا منك ومن رسولك. فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكا؟ فقال له إن الله يقول في كتابه " وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله " ويقول في موضع آخر: " ولو أنهم رضوا ما أتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله " فقال أبو حنيفة: والله لكأني ما قرأتهما قط من كتاب الله ولا سمعتهما إلا في هذا الوقت.

وقال الآبي في نثر الدرر: قال له أبو حنيفة: يا أبا عبد الله ما أصبرك على الصلاة! فقال: ويحك يا نعمان أما علمت أن الصلاة قربان كل تقي، وأن الحج جهاد كل ضعيف، ولكل شئ زكاة، وزكاة البدن الصيام، وأفضل الأعمال انتظار الفرج من الله، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، فاحفظ هذه الكلمات يا نعمان.

أحاديث في حلية الأولياء
من طريق الصادق عليه السلام
في حلية الأولياء: حدثنا محمد بن عمر بن سالم، حدثنا القاسم بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، حدثني أبي عن أبيه عن أبي عبد الله جعفر بن محمد ابن علي عن أبيه عن علي بن الحسين بن علي عن أمير المؤمنين علي قال: قال رسول الله (ص): من نقله الله عز وجل من ذل المعاصي إلى عز التقوى أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس، ومن خاف الله أخاف الله منه كل شئ، ومن لم يخف الله أخافه الله تعالى من كل شئ، ومن رضي من الله تعالى باليسير من الرزق رضي الله تعالى منه باليسير من العمل، ومن لم يستح من طلب المعيشة خفت مؤونته، ورخي باله، ونعم عياله، ومن زهد في الدنيا ثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق الله بها لسانه، وأخرجه من الدنيا سالما إلى دار القرار.

الباب السابع

مؤلفات جعفر الصادق (ع)
عرفت لجعفر الصادق مؤلفات كثيرة في فنون شتى من العلم: في الكلام، والتوحيد وسائر أصول الدين، والفقه، وأصول الفقه، والطب، والاحتجاج والحكم، والمواعظ، والآداب، وغير ذلك مما يكاد لا يحيط به الحصر وتكلفت بجمعه كتب الأخبار والأحاديث وهاك فيما يلي ما عرف من مؤلفاته:

(١) رسالته إلى النجاشي وإلى الأهواز المعروفة برسالة عبد الله بن النجاشي، وقد ذكر النجاشي صاحب الرجال أنه لم ير لأبي عبد الله (ع) مصنفا غيرها، ويمكن حمله على أنه لم يجمع هو (ع) بيده غيرها والباقي مما حفظه الرواة عنه.

(٢) رسالة له (ع) أوردها الصدوق في الخصال، وأورد سنده إليها عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليهما السلام تتضمن شرائع الدين من الوضوء والغسل بأقسامه، والصلاة بأقسامها، والزكاة، زكاة المال وزكاة الفطر، والحيض والصيام والحج والجهاد والنكاح والطلاق

وأحكام الصلاة على النبي (ص)، وحب أولياء الله، والبراءة من أعداء الله وبر الوالدين، وحكم المتعتين، وأحكام الأولاد وأفعال العباد، والجبر والتفويض، وحكم الأطفال، وعصمة الأنبياء والأئمة، وخلق القرآن ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعنى الإيمان وعذاب القبر والبعث والتكبير في العيدين، وأحكام النفساء والأطعمة والأشربة والصيد والذباحة والكبائر وغير ذلك.

(٣) الكتاب المسمى " بتوحيد المفضل " لأنه رواية، وإلا فهو من تأليف الصادق عليه السلام، وهو أحسن كتاب في رد الدهرية وإثبات الصانع، موجود بتمامه في ضمن البحار، وقد طبع مستقلا على الحجر بمصر، ويقال أنه طبع في استانبول.

(٤) كتاب الإهليلجة برواية المفضل بن عمر أيضا، وهو موجود في ضمن البحار وفي مقدمات البحار، إن كتاب التوحيد والإهليلجة سياقهما يدل على صحتهما. وقال السيد علي بن طاوس في كشف المحجة لثمرة المهجة فيما أوصى إلى ابنه: انظر كتاب المفضل بن عمر الذي أملاه عليه الصادق (ع) فيما خلق الله جل جلاله من الآثار. وانظر كتاب الإهليلجة وما فيه من الاعتبار. ولكن في فهرست ابن النديم ما لفظه: كتاب الهليلجة لا يعرف مؤلفه ويقال ألفه الصادق عليه السلام، وهذا محال ا ه ولم يبين وجه المحال.

(٥) كتاب مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة منسوب إلى الصادق عليه السلام، وهو مطبوع مع جامع الأخبار ولكن المجلسي في مقدمات البحار قال: إن فيه بعض ما يريب اللبيب الماهر، وأسلوبه لا يشبه

سائر كلمات الأئمة وآثارهم، والله أعلم. وقال صاحب الوسائل في آخر كتاب الهداية الثالث: مما ثبت عندنا أنه غير معتمد ولذا لم ننقل منه، كتاب مصباح الشريعة المنسوب إلى الصادق (ع)، فإن سنده لم يثبت، وفيه أشياء منكرة مخالفة للمتواتر. ا ه

وقال صاحب رياض العلماء عند ذكر الكتب المجهولة: ومن ذلك مصباح الشريعة في الأخبار والمواعظ، كتاب معروف متداول، إلى أن قال: بل هو من مؤلفات بعض الصوفية كما لا يخفى، لكن وصى به ابن طاوس حيث قال: ويصحب المسافر معه كتاب الإهليلجة، وهو كتاب مناظرة الصادق (ع) للهندي في معرفة الله جل جلاله بطرق عجيبة ضرورية، حتى أقر الهندي بالإلهية والوحدانية، ويصحب معه كتاب المفضل بن عمر الذي رواه عن الصادق عليه السلام في وجوه الحكمة في إنشاء العالم السفلي وإظهار أسراره، فإنه عجيب في معناه، ويصحب معه كتاب مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة عن الصادق عليه السلام، فإنه كتاب لطيف شريف في التعريف بالتسليك إلى الله جل جلاله، والإقبال عليه والظفر بالأسرار التي اشتملت عليه ا ه.

وعن الكفعمي في مجموع الغرائب أنه قال: ومن كتاب مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة، قال الصادق عليه السلام، ونقل منه أشياء كثيرة بلفظ، قال الصادق (ع). وعن الشهيد الثاني في كشف الريبة ومنية المريد ومسكن الفؤاد وأسرار الصلاة، أنه نقل جملة من أخباره

ناسبا لها إلى الصادق (ع) بصورة الجزم، وقال في آخر بعضها: هذا كله من كلام الصادق (ع). وعن السيد حسين القزويني في كتابه، جامع الشرائع، أنه قال عند بيان الكتب المأخوذ كتابه منها: ومصباح الشريعة، المنسوب إليه، يعني الصادق (ع)، بشهادة الشارح الفاضل، يعني الشهيد الثاني والسيد ابن طاوس ومولانا محسن القاشاني وغيرهم، فلا وجه لتشكيك بعض المتأخرين بعد ذلك ا ه

(٦) رسالته إلى أصحابه رواها الكليني في أول روضة الكافي، بسنده عن إسماعيل بن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام أنه كتب بهذه الرسالة إلى أصحابه وأمرهم بمدارستها والنظر فيها وتعاهدها، والعمل بها، وكانوا يضعونها في مساجد بيوتهم، فإذا فرغوا من الصلاة نظروا فيها.

وبسنده عن إسماعيل بن مخلد السراج قال: خرجت هذه الرسالة من أبي عبد الله (ع) إلى أصحابه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فاسألوا الله ربكم العافية. وذكر الرسالة بطولها وأورد شيئا من أولها في تحف العقول بعنوان " رسالته إلى جماعة شيعته وأصحابه. "

(٧) رسالته إلى أصحاب الرأي والقياس.

(٨) رسالته (ع) في الغنائم ووجوب الخمس، أوردها وما بعدها إلى السادس عشر في تحف العقول.

(٩) وصيته لعبد الله بن جندب.

(١٠) وصيته لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول.

(١١) نثر الدرر، كما سماه بعض الشيعة.
(١٢) كلامه في وصف المحبة لأهل البيت، والتوحيد والإيمان والإسلام والكفر والفسق.
(١٣) رسالته في وجوه معايش العباد ووجوه إخراج الأموال جوابا لسؤال من سأله: كم هي جهات معايش العباد التي فيها الاكتساب والتعامل بينهم ووجوه النفقات؟
(١٤) رسالته في احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق.
(١٥) كلامه في خلق الإنسان وتركيبه.
(١٦) حكمه القصيرة. وسنختار مما ذكر في تحف العقول ما نودعه في حكمه وآدابه الآتية فيما بعد. وهناك كتب مروية عن الصادق (ع) جمعها أصحابه ورووها عنه، فيصح بهذا الاعتبار نسبتها إليه، لأن الاملاء إحدى طرق التأليف، وقد ذكر خمسة منها النجاشي وذكر سنده إليها، ويحتمل تداخلها مع بعض ما تقدم وهي:
(١٧) نسخة ذكرها النجاشي في ترجمة محمد بن ميمون الزعفراني فقال: عامي، غير أنه روى عن أبي عبد الله عليه السلام نسخة.
(١٨) نسخة رواها الفضيل بن عياض عياض عنه (ع) قال النجاشي في ترجمة الفضيل: بصري ثقة عامي، روى عن أبي عبد الله عليه السلام نسخة.
(١٩) نسخة رواها عبد الله بن أبي أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي

حليف بني تميم بن مرة عنه (ع) قال النجاشي: له نسخة عن جعفر بن محمد عليهما السلام.

(٢٠) نسخة رواها سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي: قال النجاشي: له نسخة عن جعفر بن محمد.

(٢١) نسخة يرويها إبراهيم بن رجاء الشيباني، قال النجاشي: له عن جعفر عليه السلام نسخة.

(٢٢) كتاب يرويه جعفر بن بشير البجلي. قال الشيخ في الفهرست: له كتاب ينسب إلى جعفر بن محمد، رواية علي بن موسى الرضا عليهم السلام.

(٢٣) كتاب رسائله، رواه عنه جابر بن حيان الكوفي. قال اليافعي في مرآة الجنان: له كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها، وقد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتابا يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله وهي خمسمائة رسالة ا ه.

لم يذكر أحد من أصحابنا الذين ألفوا في رجال الشيعة وأصحاب الأئمة كالطوسي والنجاشي، ومن عاصرهم أو تقدمهم أو تأخر عنهم أن جابر بن حيان من تلاميذ الصادق أو من أصحابه، ولا ذكروه في رجال الشيعة، وهم أعرف بهذا الشأن من غيرهم. نعم جاء في فهرست ابن النديم: قالت الشيعة: إن جابر بن حيان من كبارهم وأحد الأبواب فيهم، قال: وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق، إلى أن قال: ولهذا الرجل كتب في

مذاهب الشيعة أنا أوردها في مواضعها، ويأتي تفصيل ذلك في ترجمته، وقد تحقق لنا بعد ذلك أن جابر بن حيان كان من تلاميذ الصادق عليه السلام.

(٢٤) تقسيم الرؤيا. في كشف الظنون: تقسيم الرؤيا للإمام جعفر الصادق عليه السلام، وفي الذريعة لم نجد سندا لهذه النسبة في غيره، فالظاهر أنه من تصنيف بعض الشيعة بالرواية عنه.

الباب الثامن

حكمه وآدابه

قال جعفر بن محمد: الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف، وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر. واستنزلوا الرزق بالصدقة. وحصنوا أموالكم بالزكاة. وما عال من اقتصد. والتدبير نصف العيش. والتودد نصف العقل. وقلة العيال أحد اليسارين. ومن أحزن والديه فقد عقهما. ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبته فقد حبط أجره. والصنيعة لا تكون صنيعة إلا عند ذي حسب ودين. والله تعالى منزل الصبر على قدر المصيبة، ومنزل الرزق على قدر المؤونة. ومن قدر معيشته رزقه الله تعالى ومن بذر معيشته حرمه الله تعالى. وقال عليه السلام: لا زاد أفضل من التقوى، ولا شئ أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولا داء أدوى من الكذب. وقال (ع): إياكم والخصومة في الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق. وقال عليه السلام: إذا بلغك عن أخيك شئ يسوؤك فلا تغتم، فإنه إذا كان كما يقول كانت عقوبة عجلت، وإن كان على غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها.

وقال عليه السلام لسفيان الثوري: لا يتم المعروف إلا بثلاثة: بتعجيله وتصغيره وستره.

وفي حلية الأولياء بسنده عن جعفر بن محمد: أوحى الله تعالى إلى الدنيا أن اخدمي من خدمني وأتعبي من خدمك.

عن " تحف العقول "
الانتقاد عداوة. قلة الصبر فضيحة. إفشاء السر سقوط. السخاء فطنة. اللؤم تغافل.
ثلاثة من تمسك بهن نال من الدنيا والآخرة بغيته: اعتصام بالله، ورضى بقضاء الله، وإحسان الظن بالله.
ثلاثة من فرط فيهن كان محروما: استماحة جواد، ومصاحبة عالم، واستمالة سلطان.
ثلاثة تورث المحبة: الدين، والتواضع، والبذل.
من برئ من ثلاثة نال ثلاثة: من برئ من الشر نال العز، ومن برئ من الكبر نال الكرامة، ومن برئ من البخل نال الشرف.
ثلاثة مكسبة للبغضاء: النفاق، والظلم، والعجب.
من لم تكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلا: عقل يزينه، أو جدة تغنيه، أو عشيرة تعضده.
ثلاثة تزري بالمرء: الحسد، والنميمة، والطيش.
ثلاثة لا تعرف إلا في ثلاثة مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخ إلا عند الحاجة.
ثلاثة من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان.

احذر من الناس ثلاثة: الخائن والظلوم والنمام، لأن من خان لك خانك، ومن ظلم لك سيظلمك، ومن نم إليك سينم عليك.
لا يكون الأمين أمينا حتى يؤتمن على ثلاث فيؤديها، على الأموال والأسرار والفروج، وإن حفظ اثنتين وضيع واحدة فليس بأمين.
لا تشاور أحمق، ولا تستعن بكذاب، ولا تثق بمودة ملول، فإن الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، والأحمق يجهد لك نفسه ولا يبلغ ما تريد، والملول أوثق ما كنت به خذلك، وأوصل ما كنت له قطعك.
ثلاث من كن فيه كان سيدا: كظم الغيظ، والعفو عن المسيء، والصلة بالنفس والمال.
ثلاثة لا بد لهم من ثلاث: لا بد للجواد من كبوة، وللسيف من نبوة، وللحليم من هفوة.
ثلاثة فيهن البلاغة: التقرب من معنى البغية، والتبعد من حشو الكلام، والدلالة بالقليل على الكثير.
النجاة في ثلاث: تمسك عليك لسانك، ويسعك بيتك، وتندم على خطيئتك.
ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر والنكث والبغي، وذلك كما في قول الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، إنا دمرناهم وقومهم أجمعين، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا. "

ثلاث يحجزن المرء عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الحياء، وضعف الرأي.
الأنس في ثلاث: الزوجة الموافقة، والولد البار، والصديق المصافي.
ثلاثة لا يعذر المرء فيها: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس.
العاقل لا يستخف بأحد، وأحق من لا يستخف به ثلاثة: العلماء، والسلطان، والإخوان، لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخف بالأخوان أفسد مروته.
ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، والجار السوء، والمرأة البذيئة
لا تطيب السكنى إلا بثلاث: الهواء الطيب، والماء الغزير العذب، والأرض الخوارة.
لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاثة يفزع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم، فإن عدموا ذلك كانوا همجا: ففيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة.
يمتحن الصديق بثلاث خصال، فإن كان مواتيا فيها فهو الصديق المصافي، وإلا كان صديق رخاء لا صديق شدة: تبتغي منه مالا، أو تأمنه على مال، أو تشاركه في مكروه.
إن المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث خلال يتكلفها وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، وغيرة بتحسن.
كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يجتلب بها المكسب. أن يكون حاذقا في عمله، مؤديا للأمانة فيه، مستميلا لمن استعمله.

تجب للوالدين على الولد ثلاثة أشياء: شكرهما على كل حال، وطاعتهما فيما يأمرانه به وينهيانه عنه في غير معصية الله، ونصيحتهما في السر والعلانية.
وتجب للولد على والده ثلاث خصال: اختياره لوالدته، وتحسين اسمه والمبالغة في تأديبه.
يحتاج الأخوة فيما بينهم إلى ثلاثة أشياء، فإن استعملوها وإلا تباينوا وتباغضوا وهي: التناصف، والتراحم، ونفي الحسد.
إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم وشماتة الأعداء بهم وهي: ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيتشتت أمرهم، والتواصل ليكون ذلك حاديا لهم على الألفة، والتعاون لتشملهم العزة.
لا يتم المعروف إلا بثلاث خلال: بتعجيله، وتقليل كثيره، وترك الامتنان به.
ثلاثة يستدل بها على أصالة الرأي: حسن اللقاء وحسن الاستماع، وحسن الجواب.
ثلاثة أشياء تدل على عقل فاعلها: الرسول على قدر من أرسله، والهدية على قدر مهديها، والكتاب على قدر كاتبه.
العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنة قائمة.
ثلاثة ليس معهن غربة، حسن الأدب، وكف الأذى، ومجانبة الريب.
الأيام ثلاثة: يوم مضى لا يدرك، ويوم، الناس فيه فينبغي أن يغتنموه، وغدا في أيديهم أمله.
من لم تكن فيه ثلاث خصال لم ينفعه الإيمان: حلم يرد به جهل

الجاهل، وورع يحجزه عن طلب المحارم، وخلق يداري به الناس.
ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، ومن إذا قدر عفا.
لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه خصال ثلاث: الفقه في الدين، وحسن التقدير في المعيشة، والصبر على الرزايا. ا ه المختار من نثر الدرر.
ومن حكمه المذكورة في تحف العقول
العلم جنة، والصدق عز، والجهل ذل، والفهم مجد، والجود نجح، وحسن الخلق مجلبة للمودة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس، والحزم مشكاة الظن، والعاقل غفور، والجاهل ختور، وإن شئت أن تكرم فلن، وإن شئت أن تهان فاخشن، ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده، ومن فرط تورط، ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم، ومن هجم على أمر بغير علم جدع أنف نفسه، إن قدرت أن لا تعرف فافعل، وما عليك إذا لم يثن الناس عليك، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت عند الله محمودا.
إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: لا خير في الحياة إلا لأحد رجلين: رجل يزداد كل يوم فيها إحسانا، ورجل يتدارك منيته بالتوبة.
إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، وأن عليك في خروجك أن لا تغتاب، ولا تكذب، ولا تحسد، ولا ترائي، ولا تتصنع، ولا تداهن.

صومعة المسلم بيته، يحبس فيه نفسه، وبصره، ولسانه، وفرجه.
كم من مغرور بما أنعم الله عليه، وكم من مستدرج بستر الله عليه، وكم من مفتون بثناء الناس عليه، كن ذنبا ولا تكن رأسا.
" منتخب من رسالته إلى جماعة شيعته
وأصحابه المذكورة في تحف العقول "
أكثروا من الدعاء، فإن الله يحب من عباده الذين يدعونه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، والله مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم، عملا يزيدهم به في الجنة. وأكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله أمركم بكثرة الذكر له، والله ذاكر من ذكره من المؤمنين. وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى. وقوموا لله قانتين كما أمر الله به المؤمنين في كتابه من قبلكم. وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن من حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله، والله له حاقر ماقت. إياكم والمعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة. إياكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغية على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغي عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله. إياكم أن يحسد بعضكم بعضا، فإن الكفر أصله الحسد. إياكم أن تشره نفوسكم إلى شئ مما حرم الله عليكم، فإن من

انتهك ما حرم الله عليه هاهنا في الدنيا، حال الله بينه وبين الجنة، ونعيمها، ولذتها، وكرامتها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الأبدين.

وجاء عنه في قصار المعاني ما نورد منه في هذا المقام،

قال عليه السلام:

من أنصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره. إذا كان الزمان زمان جور، وأهله أهل غدر، فالطمأنينة إلى كل أحد عجز.

إذا أردت أن تعلم صحة ما عند أخيك فأغضبه، فإن ثبت لك على المودة فهو أخوك وإلا فلا.

لا تعتد بمودة أخيك حتى تغضبه ثلاث مرات.

ما أقبح الانتقام بأهل الأقدار! المروءة أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك. أشكر من أنعم عليك وانعم على من شكرك، فإنه لا إزالة للنعم إذا شكرت، ولا إقامة لها إذا كفرت، والشكر زيادة في النعم وأمان من الفقر.

فوت الحاجة خير من طلبها من غير أهلها. أشد ما في المصيبة سوء الخلق منها.

وسأله رجل أن يعلمه ما ينال به خير الدنيا والآخرة ولا يطيل عليه فقال: لا تكذب.

وقيل له: ما البلاغة؟ فقال: من عرف شيئا قل كلامه فيه، وإنما سمي البليغ بليغا لأنه يبلغ حاجته بأهون سعيه.

وقال: الدين غم بالليل وذل بالنهار. بروا آباءكم يبركم أبناؤكم. واعفوا عن نساء الناس يعف عن نسائكم. من ائتمن خائنا على أمانة لم يكن

وقال لحمران بن أعين: يا حمران، انظر من هو دونك في المقدرة، ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإن ذلك أقنع لك بما قسم الله لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة منه عز وجل، واعلم أن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين، واعلم أنه لا ورع أنفع من تجنب محارم الله، والكف عن أذى المؤمنين واغتيابهم، ولا عيش أهنأ من حسن الخلق، ولا مال أنفع من القناعة باليسير المجزي، ولا جهل أضر من العجب.

وقال: إذا سلم الرجل من الجماعة أجزأ عنهم، وإذا رد واحد من القوم أجزأ عنهم.

وقال: السلام تطوع والرد فريضة. وقال: من بدأ بكلام قبل سلام فلا تجيبوه، وقال: إن تمام التحية للمقيم المصافحة، وتمام التسليم على المسافر المعانقة، وقال: تصافحوا فإنها تذهب بالسخيمة، من ملك نفسه إذا غضب، وإذا رغب، وإذا رهب، وإذا اشتهى، حرم الله جسده على النار.

العافية نعمة خفيفة، إذا وجدت نسيت، وإذا عدمت ذكرت. قد عجز من لم يعد لكل بلاء صبرا، ولكل نعمة شكرا، ولكل عسر يسرا. إصبر نفسك عند كل بلية ورزية في ولد أو في مال، فإن الله إنما يقبض عاريته وهبته ليبلو شكرك وصبرك. ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال: وقار عند الهزاهز، صبر عند البلاء، شكر عند الرخاء، قناعة بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يحمل الأصدقاء، بدنه منه في تعب، والناس منه في راحة.

العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والصبر أمير جنوده، والرفق أخوه، واللين والده.

وقال له أبو عبيدة: ادع الله لي أن لا يجعل رزقي على أيدي العباد، فقال: أبى الله عليك ذلك، أبى إلا أن يجعل أرزاق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه فإنه من السعادة، ولا يجعله على أيدي شرار خلقه فإنه من الشقاوة.

وقال: العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بعدا. من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا.

وقال: إنا لنحب من كان عاقلا، فهما، فقيها، حليما، مداريا، صبورا صدوقا، وفيا. إن الله خص الأنبياء بمكارم الأخلاق، فمن كانت فيه فليحمد الله على ذلك، ومن لم تكن فيه فليتضرع إلى الله وليسأله إياها. قيل له: وما هي؟ قال: الورع والقناعة والصبر والشكر والحلم والحياء والسخاء والشجاعة والغيرة وصدق الحديث والبر وأداء الأمانة واليقين وحسن الخلق والمروءة.

وقال: من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله.

وقال: لا يتبع الرجل بعد موته إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها لله في حياته فهي تجري بعد موته، وسنة هدى يعمل بها، وولد صالح يدعو له.

وقال: إن الصيام ليس من الطعام ولا من الشراب وحده، فقد قالت مريم: إني نذرت للرحمن صوما أي صمتا، فاحفظوا ألسنتكم، وغضوا أبصاركم، ولا تحاسدوا، ولا تنازعوا. فإن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب.

وقال: من حسن خلقه عذب نفسه. المعروف كاسمه وليس شئ أفضل من المعروف إلا ثوابه، والمعروف هدية من الله إلى عبده، وليس كل من يحب أن يصنع المعروف إلى الناس يصنعه، ولا كل من رغب فيه يقدر عليه، ولا كل من يقدر عليه يؤذن له فيه، فإذا من الله على العبد جمع له الرغبة في المعروف، والقدرة والإذن، فهناك تتم السعادة والكرامة للطالب والمطلوب إليه.

ليس لإبليس جند أشد من النساء والغضب. لم يخلق الله يقينا لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه من الموت. إذا رأيتم العبد يتفقد الذنوب من الناس ناسيا لذنبه، فاعلموا أنه قد مكر به.

الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له مثل أجر المبتلى الصابر. ينبغي للعاقل أن يكون صدوقا ليؤمن على حديثه وشكورا ليستوجب الزيادة.

ليس لك أن تأتمن الخائن وقد جربته، وليس لك أن تتهم من ائتمنت. ليس لملول صديق، ولا لحسود غنى. وكثرة النظر في الحكمة تلقح العقل.

عالم أفضل من ألف عابد، وألف زاهد، وألف مجتهد، إن لكل شئ

زكاة، وزكاة العلم أن يعلمه أهله.

القضاة أربعة: ثلاثة في النار وواحد في الجنة، رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بحق وهو يعلم فهو في الجنة.

وسئل عن صفة العدل في الرجل فقال: إذا غض طرفه عن المحارم، ولسانه عن المآثم، وكفه عن المظالم.

وقال: كلما حجب الله عن العباد فموضوع عنهم حتى يعرفوه.

وقال لداود الرقي: تدخل يدك في فم التنين إلى المرفق خير لك من طلب الحوائج إلى من لم يكن له وكان.

وقال: قضاء الحوائج إلى الله، وأسبابها بعد الله العباد تجري على أيديهم، فما قضى الله من ذلك فاقبلوه من الله بالشكر، وما زوى عنكم فاقبلوه عن الله بالرضا والتسليم والصبر، فعسى أن يكون خيرا لكم، فإن الله أعلم بما يصلحكم وأنتم لا تعلمون.

إياك ومخالطة السفلة فإن السفلة، لا تؤدي إلى خير.

أنفع الأشياء للمرء سبقه إلى عيب نفسه، وأشد شئ مؤونة إخفاء الفاقة، وأقل الأشياء غناء النصيحة لمن لا يقبلها، ومجاورة الحريص، وأروح الروح اليأس من الناس.

لا تكن ضجرا ولا قلقا، وذلل نفسك باحتمال من خالفك ممن هو

فوقك ومن له الفضل عليك، فإنما أقررت له بفضله لئلا تخالفه، ومن لا يعرف لأحد الفضل فهو المعجب برأيه، واعلم أنه لا عز لمن لا يتذلل لله، ولا رفعة لمن لا يتواضع لله.

إن من السنة لبس الخاتم.

أحب إخواني إلي من أهدى إلي عيوبي. لا تكون الصداقة إلا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شئ منها، وإلا فلا تنسبه إلى شئ من الصداقة، فأولها أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة، والثانية أن يرى زينك زينه وشينك شينه، والثالثة أن لا تغيره عليك ولاية ولا مال، والرابعة أن لا يمنعك شيئا تناله مقدرته، والخامسة وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات.

مجاملة الناس ثلث العقل. ضحك المؤمن تبسم.

وقال للمفضل: أوصيك بست خصال تبلغهن شيعتي: أداء الأمانة إلى من ائتمنك، وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك، واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب، وأن للأمور بغتات فكن على حذر، وإياك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعرا، ولا تعد أخاك وعدا ليس في يدك وفاؤه.

ثلاث لم يجعل الله لأحد من الناس فيهن رخصة: بر الوالدين برين كانا أو فاجرين، ووفاء بالعهد للبر والفاجر، وأداء الأمانة إلى البر والفاجر.

إني لأرحم ثلاثة، وحق لهم أن يرحموا: عزيز أصابته مذلة بعد العز، وغني أصابته حاجة بعد الغنى، وعالم يستخف به أهله والجهلة.
من تعلق قلبه بحب الدنيا تعلق من ضررها بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال.
الناس سواء كأسنان المشط، والمرء كثير بأخيه، لا خير في صحبة من لم ير لك مثل الذي يرى لنفسه.
من غضب عليك من إخوانك ثلاث مرات فلم يقل فيك مكروها فأعده لنفسك.
يأتي على الناس زمان ليس فيه شئ أعز من أخ أنيس، وكسب درهم حلال.
من وقف نفسه مواقف التهمة فلا يلومن من أساء به الظن، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده. وكل حديث جاوز اثنين فاش. وضع أمر أخيك على أحسنه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا. وعليك بإخوان الصدق فإنهم عدة عند الرخاء وجنة عند البلاء، وشاور في حديثك الذين يخافون الله، وأحب الإخوان على قدر التقوى، واتق شرار النساء وكن من خيارهن على حذر.
لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب أبعد الخلق منه في الله، ويبغض أقرب الخلق منه في الله.
الصفح الجميل أن لا تعاتب على الذنب، والصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى.

أربع من كن فيه كان مؤمنا: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر.
إذا زاد الرجل على الثلاثين فهو كهل، وإذا زاد على الأربعين فهو شيخ.
لا تذهب الحشمة بينك وبين أخيك، فإن ذهاب الحشمة ذهاب للحياء، وبقاء الحشمة بقاء للمودة.
وقيل له: خلوت بالعقيق وتعجلت الوحدة! فقال: لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك، وقال: أقل ما يجد العبد في الوحدة، الراحة من مداراة الناس.
ما فتح الله على عبد بابا من الدنيا إلا فتح عليه من الحرص مثليه.
وقيل له: أين طريق الراحة؟ قال: في خلاف الهوى، قيل: فمتى يجد عبد الراحة؟ فقال: عند أول يوم يصير في الجنة.
المشي المستعجل يذهب بهاء المؤمن، ويطفئ نوره.
وقال لبعض شيعته: ما بال أخيك يشكوك؟ فقال: يشكوني أن استقصيت عليه حقي، فجلس مغضبا ثم قال: كأنك إذا استقصيت عليه حقك لم تسئ؟ أرأيتك ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور الله عليهم؟ لا. ولكن خافوا الاستقصاء فسماه الله سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء.
حسن الخلق من الدين وهو يزيد في الرزق.
السخي الكريم الذي ينفق ماله في حق الله.
قيل له: ما كان في وصية لقمان؟ فقال: كان فيها الأعاجيب، وكان

من أعجب ما فيها أن قال لابنه: خف الله خيفة لو جئته معها ببر الثقلين لعذبك، وارج الله رجاء لو جئته معه بذنوب الثقلين لرحمك!
لا يتكلم أحد بكلمة هدى فيؤخذ بها، ولا يتكلم بكلمة ضلالة فيؤخذ بها إلا كان له مثل وزر من أخذ بها.
أربعة من أخلاق الأنبياء: البر، والسخاء، والصبر على النائبة، والقيام بحق المؤمن.
لا تعدن مصيبة أعطيت عليها الصبر، واستوجبت عليها من الله ثوابا
إنما المصيبة أن يحرم صاحبها أجرها وثوابها إذا لم يصبر عند نزولها، ألا وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان الفقير في دنياه ومعاشه، ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين.
وقال: إن صلة الرحم والبر، يهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم، وبروا إخوانكم ولو بحسن السلام ورد الجواب.
وقال (ع): من رضي بالقليل من الرزق قبل الله منه اليسير من العمل، ومن رضي باليسير من الحلال خفت مؤونته وزكت مكسبته وخرج من حد العجز.
من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضي الناس بسخط الله، ولا يحمدهم على ما رزقه الله، ولا يلومهم على ما لم يؤته الله، فإن رزقه لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كره كاره. ولو أن أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لأدركه رزقه قبل موته كما يدركه الموت.

ثلاث خصال هن أشد ما عمل به العبد: إنصاف المؤمن من نفسه، ومواساة المرء لأخيه، وذكر الله على كل حال، قال: يذكر الله عند كل معصية يهم بها فيحول بينه وبين المعصية.
إياكم والمزاح فإنه يجر السخيمة ويورث الضغينة وهو السب الأصغر.
وقال الحسن بن راشد: قال أبو عبد الله (ع): إذا نزلت بك نازلة... إلى أن قال: ولكن اذكرها لبعض إخوانك، فإنك لن تعدم خصلة من أربع خصال: أما كفاية، وأما معونة بجاه، أو دعوة مستجابة، أو مشورة برأي.
لا تتكلم بما لا يعنيك، ودع كثيرا من الكلام فيما يعنيك حتى تجد له موضعا، فرب متكلم تكلم بالحق بما لا يعنيه في غير موضعه فيعيب، ولا تمارين سفيها ولا حليما، فإن الحليم يغلبك والسفيه يرديك. واذكر أخاك إذا تغيب بأحسن ما تحب أن يذكرك به إذا تغيبت عنه،
فإن هذا هو العمل. واعمل عمل من يعلم أنه مجزي بالإحسان مأخوذ بالإجرام.
وقال له يونس: لولائي لكم وما عرفني الله من حقكم أحب إلي من الدنيا بحذافيرها، قال يونس: فتبينت الغضب فيه، ثم قال: يا يونس قستنا بغير قياس! ما الدنيا وما فيها؟ هل هي إلا سدة فورة أو ستر عورة؟ وأنت لك بمحبتنا الحياة الدائمة.
وقال (ع): يا شيعة آل محمد، إنه ليس منا من لم يملك نفسه

عند الغضب، ولم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه، ومصالحة من صالحه، ومخالقة من خالقه، يا شيعة آل محمد، اتقوا الله ما استطعتم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال عبد الأعلى: كنت في حلقة بالمدينة فذكروا الجود فأكثروا، فقال رجل منهم يكنى أبا دلين: إن جعفرا وأنه لولا أنه ضم يده، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام بعد ذلك: تجالس أهل المدينة؟ قلت: نعم! قال: فما حديث بلغني؟ فقصصت عليه الحديث، فقال: ويح أبي دلين! إنما مثله مثل الريشة تمر بها الريح فتطيرها، ثم قال: قال رسول الله (ص): كل معروف صدقة، وأفضل الصدقة صدقة عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى، ولا يلام الله على الكفاف، أتظنون أن الله بخيل، وترون أن شيئا أجود من الله؟ إن الجواد السيد من وضع حق الله موضعه، وليس الجواد من يأخذ المال من غير حله ويضعه في غير حقه! أما والله إني لأرجو أن ألقى الله ولم أتناول ما لا يحل لي، وما ورد علي حق الله إلا أمضيته، وما بت ليلة قط ولله في مالي حق لم أؤده.

وقال عليه السلام: لا رضاع بعد فطام، ولا وصال في صيام، ولا تيمم بعد احتلام، ولا صمت يوم إلى الليل، ولا تغرب بعد الهجرة، ولا هجرة بعد الفتح، ولا طلاق قبل النكاح، ولا عنق قبل ملك، ولا يمين لولد مع والده، ولا للمملوك مع مولاه، ولا لمرأة مع زوجها، ولا نذر في معصية ولا يمين في قطيعة.

وقال (ع): ليس من أحد، وإن ساعدته الأمور، بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه. ومن انتظر بمعالجة الفرصة، مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته، لأن من شأن الأيام السلب، وسبيل الزمن الفوت.
وقال (ع): المعروف زكاة النعم، والشفاعة زكاة الجاه، والعلل زكاة الأبدان، والعفو زكاة الظفر، وما أديت زكاته فهو مأمون السلب.
وقال (ع): إذا أقبلت دنيا قوم كسبوا محاسن غيرهم، وإذا أدبرت سلبوا محاسن أنفسهم. وقال عليه السلام: البنات حسنات والبنون نعم، فالحسنات تثاب عليهن والنعمة تسأل عنها. (انتهى ما اخترناه من تحف العقول.)
ونقلنا عن " نثر الدرر " " للآبي ":
قال (ع): القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق.
وقال (ع): من أنصف من نفسه رضي به حكما لغيره.
وقال عليه السلام: أكرموا الخبز فإن الله أنزله كرامة، قيل: وما كرامته؟ قال: لا يقطع، ولا يوطأ، وإذا حضر لا ينتظر به سواه.
وقال (ع): حفظ الرجل أخاه بعد وفاته في تركته، كرم.
وقال (ع): ما من شئ أسر إلي من يد اتبعتها الأخرى، لأن منع الأواخر يقطع لسان شكر الأوائل.
وقال (ع) إني لأملق أحيانا فأتاجر مع الله بالصدقة.
وقال (ع): لا يزال العز قلقا حتى يأتي دارا قد استشعر أهلها اليأس مما في أيدي الناس فيستوطنها.

وقال (ع): إذا دخلت على أخيك منزله فاقبل الكرامة كلها، ما خلا الجلوس في الصدر.
وقال (ع): كفارة عمل السلطان، الاحسان إلى الإخوان.
وقال (ع): إياك وسقطة الاسترسال فإنها لا تستقال.
وقيل له: ما طعم الماء؟ فقال: كطعم الحياة.
وقال عليه السلام: من لم يستحي من العيب ويرعو عند الشيب ويخشى الله بظهر الغيب فلا خير فيه.
وقال (ع): إن خير العباد من يجتمع فيه خمس خصال: إذا أحسن استبشر، وإذا أساء استغفر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا ظلم غفر.
وقال (ع): إني لأسارع إلى حاجة عدوي خوفا أن أرده فيستغني عني
وقال: ثلاث لا يزيد الله بها المسلم إلا عزا: الصفح عمن ظلمه، والإعطاء لمن حرمه، والصلة لمن قطعه.
وقال: من اليقين أن لا ترضي الناس بما يسخط الله، ولا تذمهم على ما لم يؤتك الله، ولا تحمدهم على رزق الله، فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يصرفه كره كاره، ولو أن أحدكم فر من رزقه كما يفر من الموت لأدركه الرزق كما يدركه الموت.
وقال: مروءة الرجل في نفسه نسب لعقبه وقبيلته.
وقال: من صدق لسانه زكا عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه،

من حسن بره في أهل بيته زيد في عمره.
وقال: خذ من حسن الظن بطرف تروح به قلبك، وتمضي به أمرك.
وقال: المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، والذي إذا قدر لم يأخذ أكثر مما له.
أربعة أشياء القليل منها كثير: النار والعداوة والفقر والمرض.
وقال: صحبة عشرين يوما قرابة.
ا. ه.

الباب التاسع

وصايا جعفر الصادق (ع)

روى أحد أصحاب جعفر الصادق أنه دخل على جعفر، وموسى ولده بين يديه وهو يوصيه بهذه الوصية، فكان مما حفظت منها أنه قال: يا بني اقبل وصيتي واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيدا وتمت حميدا، يا بني أنه من رضي بما قسم له استغنى، ومن مد عينه إلى ما في يد غيره مات فقيرا، ومن لم يرضى بما قسم الله له عز وجل اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه، يا بني من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بئرا سقط فيها، ومن داخل السفهاء حقر، ومن خالط العلماء وقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، يا بني إياك أن تزري بالرجال فيزرى لك، وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذل لذلك، يا بني قل الحق لك أو عليك تستشان من بين أقرانك، يا بني كن لكتاب الله تاليا، وللسلام فاشيا، وبالمعروف آمرا، وعن المنكر ناهيا، ولمن قطعك واصلا، ولمن سكت عنك مبتدئا، ولمن سألك معطيا، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، وإياك والتعرض؟ لعيوب الناس فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف، يا بني إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن، وللمعادن أصولا، وللأصول فروعا، وللفروع ثمرا، ولا يطيب ثمر إلا بفرع، ولا فرع إلا بأصل، ولا أصل ثابت إلا بمعدن طيب، يا بني إذا زرت فزر الأخيار ولا تزر

الفجار، فإنهم صخرة لا يتفجر ماؤها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرض لا يظهر عشبها، قال علي بن موسى عليهما السلام: فما ترك أبي هذه الوصية إلى أن مات.

وصيته لسفيان الثوري

وهي مذكورة في تحف العقول، ورواها الصدوق في الخصال بسنده عن سفيان الثوري قال: لقيت الصادق بن الصادق فقلت له: يا ابن رسول الله أوصني، فقال: يا سفيان، وفي تحف العقول، قال سفيان الثوري: دخلت على الصادق (ع) فقلت له أوصني بوصية أحفظها من بعدك، قال: وتحفظ يا سفيان؟ قلت: أجل يا ابن بنت رسول الله قال: يا سفيان، لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا أخا لملول، ولا خلة لمختال، ولا سؤدد لسيئ الخلق، ثم أمسك فقلت: يا ابن بنت رسول الله زدني! فقال: يا سفيان، ثق بالله تكن عارفا (مؤمنا) وارض بما قسمه لك تكن غنيا (وفي رواية الخصال) وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما. صاحب بمثل ما يصاحبونك به تزدد إيمانا، ولا تصاحب الفاجر فيعلمك من فجوره، وشاور في أمرك الذين يخشون الله، ثم أمسك فقلت: يا ابن رسول الله زدني! فقال: يا سفيان من أراد عزا بلا سلطان، وكثرة بلا إخوان، وهيبة بلا مال (وفي رواية الخصال) من أراد عزا بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان فلينتقل من ذل معاصي الله إلى عز طاعته، ثم أمسك فقلت: يا ابن بنت رسول الله زدني! فقال: يا سفيان أدبني أبي بثلاث

ونهاني عن ثلاث فأما اللواتي أدبني بهن فإنه قال لي: يا بني من يصحب
صاحب السوء لا يسلم، ومن لا يقيد ألفاظه أو (ومن لا يملك لسانه)
يندم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم. قلت: يا ابن رسول الله فما
الثلاث اللواتي نهاك عنهن؟ قال: نهاني أن أصاحب حاسد نعمة، وشامتا
بمصيبة، أو حامل نميمة، وزاد في رواية الخصال، ثم أنشدني:
عود لسانك قول الخير تحظ به * إن اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له * في الخير والشر، فانظر كيف تعتاد
" منتخب من وصيته عليه السلام لعبد الله بن جندب "
" وهي المذكورة في تحف العقول "
يا ابن جندب، حق على كل مسلم يعرفنا أن يعرض عمله في كل يوم
وليلة على نفسه فيكون محاسبا لها، فإن رأى حسنة استزاد منها، وإن رأى سيئة استغفر
منها. طوبى لعبد طلب الآخرة وسعى لها! طوبى
لمن لم تلهه الأماني الكاذبة! يا ابن جندب، يهلك المتكل على عمله، ولا
ينجو المجترئ على الذنوب الواثق برحمة الله، قلت: فمن ينجو؟ قال:
الذين هم بين الرجاء والخوف، كأن قلوبهم في مخلب طائر شوقا إلى
الثواب وخوفا من العذاب. من سره أن يزوجه الله الحور العين، ويتوجه
بالنور، فليدخل، على أخيه المؤمن السرور. يا ابن جندب من أصبح
مهموما بسوى فكاك رقبته فقد هون عليه الجليل، ورغب من ربه في
الحقير. ومن غش أخاه وحقره وناوأه جعل الله النار مأواه، ومن حسد
مؤمنا انماث الإيمان في قلبه كما ينماث الملح في الماء. يا ابن جندب، الماشي

في حاجة أخيه كالساعي بين الصفا والمروة، وقاضي حاجته كالمتشحط بدمه في سبيل الله يوم بدر وأحد، وما عذب الله أمة إلا عند استهانتهم بحقوق فقراء إخوانهم. يا ابن جندب، بلغ معاشر شيعتنا وقل لهم: لا تذهبن بكم المذاهب! فوالله لا تنال ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد في الدنيا ومواساة الإخوان في الله، وليس من شيعتنا من يظلم الناس! يا ابن جندب، إن أحببت أن تجاور الجليل في داره فلتهن عليك الدنيا، واجعل الموت نصيب عينيك، ولا تدخر شيئا لغد، واعلم أن لك ما قدمت وعليك ما أخرت. يا ابن جندب، من حرم نفسه كسبه فإنما يجمع لغيره، ومن أطاع هواه فقد أطاع عدوه، ومن يثق بالله يكفه ما أهمه من أمر دنياه وآخرته، ويحفظ له ما غاب عنه، وقد عجز من لم يعد لكل بلاء صبرا، ولكل نعمة شكرا، ولكل عسر يسرا. صبر نفسك عند كل بلية في ولد أو مال أو رزية، فإنما يقبض عاريته ويأخذ هبته ليبلو فيهما صبرك وشكرك، وارج الله رجاء لا يجرئك على معصيته، وخفه خوفا لا يؤيسك من رحمته، وأقنع بما قسم الله لك، ولا تتمن ما لست تناله، ولا تكن بطرا في الغنى، ولا جزعا في الفقر، ولا تكن فظا غليظا يكره الناس قربك، ولا تكن واهيا يحقرك من عرفك، ولا تشار من فوقك، ولا تسخر بمن هو دونك، ولا تطع السفهاء، ولا تتكلن على كفاية أحد. وقف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه، قبل أن تقع فيه فتندم، واجعل نفسك عدوا تجاهده وعارية تردها، فإنك قد جعلت طبيب نفسك، وعرفت آية الصحة، وبان لك الداء، ودللت على الدواء وإن كانت لك يد عند إنسان فلا تفسدها بكثرة المنن والذكر لها ولكن أتبعها بأفضل منها، فأن ذلك أجمل بك في أخلاقك، وأوجب للثواب

في آخرتك، وعليك بالصمت تكن حليما، جاهلا كنت أو عالما، فإن الصمت زين لك عند العلماء، وستر لك عند الجهال.

يا ابن جندب، إن عيسى بن مريم صلى الله عليه قال لأصحابه: أرأيتم لو أن أحدكم مر بأخيه فرأى ثوبه قد انكشف عن بعض عورته، أكان كاشفا عنها كلها أم يرد عليها ما انكشف منها؟ قالوا: بل يرد عليها قال: كلا بل تكشفون عنها كلها. فعرف أنه مثل ضربه لهم، فقيل: يا روح الله وكيف ذلك؟ قال: الرجل منكم يطلع على العورة من أخيه فلا يسترها، بحق أقول لكم: إنكم لا تصيبون ما تريدون إلا بترك ما تشتهون، ولا تنالون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون، إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة! طوبى لمن جعل بصره في قلبه ولم يجعل بصره في عينه! لا تنظروا في عيوب الناس كالأرباب، وانظروا في عيوبكم كهيئة العبد. إنما الناس رجلان: مبتلى ومعافى، فارحموا المبتلى، واحمدوا الله على العافية.

يا ابن جندب، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأحسن إلى من أساء إليك، وسلم على من سبك، وانصف من خاصمك، واعف عمن ظلمك كما تحب أن يعفى عنك، فاعتبر يعفو الله عنك. ألا ترى أن شمسه تشرق على الأبرار والفجار، وأن مطره ينزل على الصالحين والخاطئين؟

يا ابن جندب، لا تتصدق على أعين الناس ليزكوك، فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك، ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك، فإن الذي تتصدق له سرا يجزيك علانية.

وما ينبغي لأحد أن يطمع بعمل الفجار في منازل الأبرار. يا ابن جندب، قال الله عز وجل في بعض ما أوحى: إنما أقبل الصلاة ممن يتواضع لعظمتي، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكري، ولا يتعظم على خلقي، ويطعم الجائع ويكسو العاري، ويرحم المصاب، ويؤوي الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، أكلاه بعزتي واستحفظه ملائكتي، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه!

(منتخب من وصيته لأبي جعفر محمد بن النعمان الأحول)

" وهي المذكورة في تحف العقول "

يا ابن النعمان، إياك والمراء فإنه يحبط عملك، وإياك والجدال فإنه يوبقك، وإياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله! إن من كان قبلكم كانوا يتعلمون الصمت، وأنتم تتعلمون الكلام. كان أحدهم إذا أراد التعبد يتعلم الصمت قبل ذلك بعشر سنين، فإن كان يحسنه ويصبر عليه تعبد وإلا قال: ما أنا لما أروم بأهل! إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء وصبر في دولة الباطل على الأذى أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقا، وهم المؤمنون، إنما أبغضكم إلي المترئسون المشاؤون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، هؤلاء ليسوا مني ولا أنا منهم! ثم قال: والله لو قدم أحدكم ملء الأرض ذهبا ثم حسد مؤمنا لكان ذلك الذهب مما يكون به في النار. يا ابن النعمان، من سئل عن علم فقال لا أدري فقد ناصف العلم، والمؤمن يحقد ما دام في مجلسه، فإذا قام ذهب عنه الحقد. يا ابن النعمان، إذا أردت أن يصفو لك ود أخيك فلا تمازحنه،

ولا تمارينه ولا تناهينه ولا تشاورنه، ولا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك، فإن الصديق قد يكون عدوا يوما ما.

يا ابن النعمان لا يكون العبد مؤمنا حتى تكون فيه ثلاث سنن: سنة من الله، وسنة من رسوله وسنة من الإمام، فأما السنة من الله عز وجل فهو أن يكون كتوما للأسرار، يقول الله جل ذكره: " عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا " وأما التي من رسول الله (ص) فهي أن يداري الناس ويعاملهم بالأخلاق الحنيفية، وأما التي من الإمام فالصبر في البأساء والضراء حتى يأتيه الله بالفرج.

يا ابن النعمان، ليست البلاغة بحدة اللسان ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة.

يا ابن النعمان، من كظم غيظا فينا لا يقدر على إمضائه، كان معنا في السنام الأعلى.

وصيته لعنوان البصري

ذكر الشهيد الثاني في منية المريد نقلا عن حديث عنوان البصري الطويل، وذكر السيد محمد بن محمد بن الحسن الحسيني العاملي العينائي المعروف بابن قاسم في كتاب الاثني عشرية في المواعظ العددية، أن هذا الحديث من روايات أهل السنة عن عنوان البصري، وكان شيخا كبيرا أتى عليه أربع وستون سنة قال: كنت اختلف إلى مالك بن أنس في طلب العلم،

فلما قدم جعفر بن محمد الصادق المدينة (١)، أحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك، فقال لي يوما: إني رجل مطلوب (٢)، ولي أوراد في كل ساعة، قم عني لا تشغلني عن وردي ورح إلى مالك! فاغتممت من ذلك وقلت: لو تفرس في خيرا لما فعل ذلك، فدخلت مسجد النبي (ص) وسلمت عليه، وصليت ركعتين في الروضة، ودعوت الله أن يعطف علي قلب جعفر بن محمد، ويرزقني من علمه ما أهتدي به إلى الصراط المستقيم، ولم اختلف إلى مالك لما أشرب قلبي من حب جعفر، ثم قصدت باب جعفر واستأذنت، فخرج خادم فقال: ما حاجتك؟ قلت: السلام على الشريف. قال: هو في الصلاة. فجلست فما لبثت إلا يسيرا إذ خرج خادم آخر فقال: ادخل على بركة الله! فدخلت وسلمت، فرد علي السلام وقال: اجلس غفر الله لك! فأطرق مليا ثم رفع رأسه فقال: أبو من؟ قلت: أبو عبد الله. قال ثبت الله كنيتك ووفقك لكل خير. فقلت في نفسي: لو لم يكن من زيارته إلا هذا الدعاء لكان كثيرا، ثم قال: ما مسألتك؟ قلت: سألت الله أن يعطف علي قلبك ويرزقني من علمك، وأرجو أن الله أجابني في الشريف ما سألته.
فقال: يا أبا عبد الله، ليس العلم بكثرة التعلم، إنما هو نور يضعه الله في قلب من يريد أن يهديه، فإذا أردت العلم فاطلب أولا في نفسك حقيقة العبودية، واطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك. فقلت: ما حقيقة العبودية قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكا، لأن العبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه

---

(١) أي قدمها من سفر.
(٢) أي مطلوب من الله تعالى بأعمال وعبادة أو مطلوب من قبل السلطان ويكره الاشتهار.

حيث أمرهم الله، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيرا، وجملة اشتغاله فيما أمره
الله به ونهاه عنه، فإذا لم ير العبد لنفسه تدبيرا، وجملة اشتغاله هي فيما
أمره الله به ونهاه عنه، وإذا لم ير العبد فيما خوله الله ملكا هان عليه
الإنفاق فيما أمره الله، وإذا فوض تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه
مصائب الدنيا، وإذا اشتغل بما أمره الله به ونهاه عنه لا يتفرع إلى المراء
والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا،
لا يطلبها تفاخرا وتكاثرا، ولا يطلب عند الناس عزا وعلوا، ولا يدع
أيامه باطلة، فهذا أول درجة المتقين، قال الله تعالى: " تلك الدار
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين "
قلت: يا أبا عبد الله أوصني! قال:
أوصيك بتسعة أشياء، فإنها وصيتي لمريد الطريق إلى الله تعالى، والله
أسأل أن يوفقك لاستعمالها: ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في
الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإياك والتهاون بها. قال عنوان: ففرغت
قلبي، ثم قال الإمام: أما اللواتي في الرياضة فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنه
يورث الحمق والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، فإذا أكلت فكل حلالا
وسم الله تعالى، واذكر حديث النبي (ص): ما ملأ آدمي وعاء أشد شرا من
بطنه، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه. وأما اللواتي
في الحلم فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشرا، فقلت: إن قلت عشرا
لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له إن كنت صادقا فيما تقوله فأسأل الله
أن يغفر لي، وإن كنت كاذبا فأسأل الله أن يغفر لك، ومن وعدك
بالخيانة فعده بالنصيحة والدعاء. وأما اللواتي في العلم فاسأل العلماء ما
جهلت، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة، وإياك أن تعدل بذلك شيئا، وخذ

بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلا، واهرب من الفتيا فرارك من الأسد والذئب، ولا تجعل رقبتك جسرا للناس، ثم قال عنوان البصري: يا شريف! فقال: قل يا أبا عبد الله! أو قال له: قم يا أبا عبد الله، فقد نصحت لك ولا تفسد علي وردي، فإني رجل ضنين بنفسي!

الباب العاشر

جعفر الصادق (ع) والشعر

عن كتاب نثر الدرر للآبي أن الصادق عليه السلام قال: إياكم وملاحاة الشعراء فإنهم يضنون بالمدح ويجودون بالهجاء.

وفي مناقب ابن شهرآشوب: أنشد الصادق (ع) يقول:

فينا يقينا يعد الوفاء، * وفينا تفرخ أفراخه
رأيت الوفاء يزين الرجال، * كما زين العذق شمراخه

وفي المناقب أن سائلا سأله حاجة فأسعفه، فجعل السائل يشكره فقال عليه السلام:

إذا ما طلبت خصال الندى، * وقد عضك الدهر من جهده
فلا تطلبن إلى كالح * أصاب اليسارة من كده!

ولكن عليك بأهل العلى، * ومن ورث المجد عن جده
فذاك إذا جئته طالبا * حبيت اليسارة من جده
قال وروي عن الصادق عليه السلام:
تعصي الإله، وأنت تظهر حبه، * هذا لعمرك في الفعال بديع!
لو كان حبك صادقا لأطعته، * إن المحب لمن أحب مطيع!
ومر في تحف العقول أن الباقر (ع) أنشد هذين البيتين. وله عليه السلام، أورده في المناقب:
علم المحجة واضح لمريده، * وأرى القلوب عن المحجة في عمى
ولقد عجبت لهالك ونجاته * موجودة، ولقد عجبت لمن نجا!
وفي المناقب روى سفيان الثوري له عليه السلام:
لا اليسر يطرؤنا يوما فيبطرنا * ولا لأزمة دهر نظهر الجزعا
إن سرنا الدهر لم نبهج لصحته * أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا!
مثل النجوم على مضمار أولنا، * إذا تغيب نجم آخر طلعا
قال: وروى له عليه السلام:
في الأصل كنا نجوما يستضاء بنا، * وللبرية نحن اليوم برهان
نحن البحور التي فيها لغائصكم * در ثمين، وياقوت ومرجان

مساكن القدس والفردوس نملكها، * ونحن للقدس والفردوس خزان
من شذ عنا فبرهوت مساكنه، * ومن أتانا فجنات وولدان
وقال الحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي في معالم العترة النبوية:
قال إبراهيم بن مسعود: كان رجل من التجار يختلف إلى جعفر بن محمد يخالطه ويعرفه بأحسن حال، فتغيرت حاله فجعل يشكو إلى جعفر (ع) فقال له:
فلا تجزع وإن أعسرت يوما، * فقد أيسرت في زمن طويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر، * لعل الله يغني عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء، * فإن الله أولى بالجميل
وعن كتاب العدد القوية: قال الثوري لجعفر بن محمد: يا ابن رسول الله لم اعتزلت الناس؟ فقال: يا سفيان فسد الزمان وتغير الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد ثم قال:
ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب، * والناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودة والصفا، * وقلوبهم محشوة بعقارب
وفي حاشية مجموعة الأمثال الشعرية ينسب إلى جعفر الصادق (ع):
لا تجزعن من المداد فإنه * عطر الرجال وحلية الآداب

بعض ما مدح به من الشعر
عن كتاب سوق العروس عن الدامغاني أن عبد الله بن المبارك قد استقبله فقال:
أنت يا جعفر فوق ال مدح، * والمدح عناء!
إنما الأشراف أرض، ولهم * أنت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته * الأنبياء
وقال:
الله أظهر دينه وأعزه * بمحمد
والله أكرم بالخلافة * جعفر بن محمد
قال المفيد في الإرشاد: وفيه يقول السيد إسماعيل بن محمد الحميري، وقد رجع عن مذهب الكيسانية لما بلغه إنكار أبي عبد الله مقاله، ودعاؤه له إلى القول بنظام الإمامة:
أيا راكبا نحو المدينة جسرة * عذافرة يطوي بها كل سبسب
إذا ما هداك الله فعاينت جعفرا، * فقل لولي الله وابن المهذب:
ألا يا ولي الله وابن وليه، * أتوب إلى الرحمن ثم أتوب
إليك من الذنب الذي كنت مطنبا * أجاهد فيه دائبا كل معرب
وما كان قولي في ابن خولة دائما * معاندة مني لنسل المطيب
ولكن روينا عن وصي محمد، * ولم يك في ما قاله بالمكذب

بأن ولي الأمر يفقد لا يرى * سنين، كفعل الخائف المترقب
فتقسم أموال الفقيد كأنما * تغيب ما بين الصفيح المنصب
فإن قلت لا، فالحق قولك والذي * تقول فحتم غير ما متعصب
وأشهد ربي أن قولك حجة * على الخلق طرا من مطيع ومذنب
بأن ولي الأمر، والقائم الذي * تطلع نفسي نحوه وتطربي
له غيبة لا بد أن سيغيبها، * فصلى عليه الله من متغيب!
فيمكث حينا ثم يظهر أمره، * فيملأ عدلا كل شرق ومغرب

قال: وفي هذا الشعر دليل على رجوع السيد رحمه الله عن مذهب الكيسانية وقوله بإمامة الصادق عليه السلام.

كيفية وفاته

روى الكليني في الكافي بسنده عن أبي الحسن الأول وهو الكاظم عليه السلام أنه قال: لما حضرت أبي الوفاة قال لي يا بني أنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة! وروى الصدوق في ثواب الأعمال بسنده عن أبي بصير قال: دخلت على حميدة (١) أعزيها بأبي عبد الله (ع) فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد، لو رأيت أبا عبد الله عند الموت لرأيت عجبا: فتح عينيه ثم قال اجمعوا لي كل من بيني وبينه قرابة، فلم نترك أحدا إلا جمعناه، فنظر إليهم ثم قال: إن شفاعتنا لا تنال مستخفا بالصلاة! وروى الشيخ في كتاب الغيبة، بسنده عن سالمة مولاة

---

(١) الذي في الأصل هو أم حميدة وهو سهو لأن حميدة هذه أم ولد كانت للصادق وهو أم ولده الكاظم عليهما السلام.

أبي عبد الله جعفر بن محمد قالت: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام، حين حضرته الوفاة وأغمي عليه، فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن الحسين، وهو الأفطس، سبعين دينارا، وأعطوا فلانا كذا، وفلانا كذا، فقلت: أتعطي رجلا حمل عليك بالشفرة يريدان يقتلك؟ قال: تريدني أن لا أكون من الذين قال الله عز وجل فيهم؟: " والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب " نعم يا سالمة! إن الله خلق الجنة فطيبها وطيب ريحها، وأن ريحها يوجد من مسيرة ألفي عام، ولم يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم. وروى الكليني بسنده عن أبي الحسن الأول قال: أنا كفنت أبي في ثوبين شطويين (نسبة إلى شطا أو شطاة قرية بمصر من قرى دمياط) كان يحرم فيهما وفي قميص من قمصه، وفي عمامة كانت لعلي بن الحسين، وفي برد اشتريته بأربعين دينارا، وزاد في رواية أخرى: لو كان اليوم لساوى أربعمائة دينار.

وروي عن عيسى بن داب أنه لما توفي الصادق (ع) ووضع على السرير، وحمل إلى البقيع ودفن، أنشد أبو هريرة العجلي يقول:

أقول وقد راحوا به يحملونه * على كاهل من حامليه وعاتق:
أتدرون ماذا تحملون إلى الثرى؟ * ثبيرا ثوى من رأس علياء شاهق
غداة حثا الحاثون فوق ضريحه * ترابا، وقبلا كان فوق المفارق

الباب الحادي عشر

الإمام العالم
رمضان لاوند
كنت قد قدمت الفصول السابقة التي جمعت فيها أخبار الإمام الصادق رحمه الله. فكانت لوحة مفعمة بأروع ما تتحلى به نفوس الصديقين ممن اختارهم الله لطاعته وأتاح لهم فرصة اتباع سبيله والرغبة عن نواهيه وزواجره.
لقد بدت في هذه اللوحة الشاملة شخصية الذي يستضئ بنور الإيمان ويعيش في حدود الرسالة الدينية الخالصة التي التزمها لنفسه، وجعل منها موضوع حياته، ومعنى كفاحه، ومبررا لصبره وإقباله على العلم في مصادره، واتباعه الهدى في مضاربه.
ومن البداهة أنني لن أعيد الحديث مجملا أو مفصلا في أخلاقه للشخصية بل أجدني مرغما على استعراض جانب آخر أغفلته الأخبار المذكورة في الفصول السابقة أو أنها أشارت إليه إشارة عابرة في غير تفصيل أو تنظيم.

لم يفز الإمام الصادق بما يفوز به الزاهد والمتقشف والراغب عن ملذات الدنيا وشواغلها الصغيرة فقط، فهذا جانب واحد من جوانب شخصيته الغنية. ولعلي لو وصفت هذه الشخصية ب (الإنسانية) لما عدوت الصواب وتجاوزت الواقع الذي تثبته الأخبار والروايات المختلفة.

إنسانية الإمام

لا أفهم من إنسانية الإمام هنا ما يفهمه الناس من أنها خصوصية أخلاقية ينسبونها إلى الفاضلين من الرجال، بل أدرك بها معنى أوسع وأشمل، لا تكون فيه الفضيلة فضيلة أخلاقية فقط، بل فضيلة علمية أيضا.

لقد كان الإمام متفوقا في خلقه متفوقا في حسن معاملته للناس، متفوقا في تصوير المثل الأعلى الأدبي لمن كان يطلب العلم في مجالسه، أو يذهب مذهبه من أتباعه، أو يعجب به من هو على مذهب غيره من العلماء والفقهاء، كما كان متفوقا في سعة إدراكه وغوصه على الحقائق العلمية الفلسفية في عصره، متفوقا في مشاركته الشاملة التامة العميقة في كل المعارف التي شاعت في عصره الذهبي.

لم يكن الإمام متخصصا في فرع من العلوم، أو ناهجا منهجا فلسفيا خاصا، راغبا عن غيره أو جاهلا له. فلم يكن التخصص يومذاك من مذاهب كبار العلماء وجهابذتهم.

العالم في القرون الهجرية الأولى هو معلمة عصره. يجد أتباعه عنده،

الأدب، والعلم بالأخبار، والإحاطة بالسنة النبوية، والاطلاع على التفسير إلى جانب المعرفة بالمذاهب الفلسفية، والنكت العلمية، وخلاصة الآراء في الطب، والرياضيات، والفلك، والكيمياء، كما يجدون عنده بصرا بأسرار النحو والصرف والبيان، ورواية واسعة للغات القبائل العربية ولهجاتها المختلفة. لقد كان العالم الجهبذ في أواخر العصر الأموي، وفي القرون الأولى للعصر العباسي، مكتبة متنقلة تنطوي في أحشائها على كنوز الإنسانية في كل ما ورثته من علوم الأولين، وما اكتسبته بعد ذلك بتجاربها الخاصة.

وبما أن الإمام الصادق قد كان من ركام هذه المعارف في القمة، بل كان الآية الأولى على حلول هذا العصر الذي أسمح لنفسي بتسميته، بالعصر الإنساني، فقد رأيت واجبا علي أن أتحدث عن إنسانيته هذه، التي افتتح بها العصر الذهبي لإنسانيات إسلامية كثيرة، تزين بها التراث الإسلامي والعربي من بعده خلال القرون العباسية الأولى.

والحق أن التاريخ الإسلامي لم يتميز بهذه الخصوصية عن غيره من تواريخ الأمم الأخرى. فقد رأينا مثل هذه الظاهرة خلال القرون الوسطى الأوروبية. رأيناها في علماء الكنيسة من الكهان الذين كانوا ينصرفون إلى المعرفة والاطلاع على تراث البشرية منها كله، ورأيناها أيضا في فلاسفة عصر النهضة وعلمائه. وهم الذين كانوا يشاركون في كل علم، ويعالجون كل مشكلة، ويحيطون علما بكل ما كان يشغل البشرية يومئذ من شؤون وشجون.

ولعلنا لو قرأنا فصلا من فصول قصة أحدب نوتردام التي كتبها

الشاعر والقصاص الفرنسي فيكتور هيجو، من أبناء القرن التاسع عشر، ولا سيما الفصل الذي يتحدث فيه عن الكاهن دوم كلود فروللر، أحد أبطال قصته، لوجدنا في شخصية هذا الكاهن العلمية، ما يصور تمام التصوير شمول المعرفة عند علماء القرن الخامس عشر الميلادي أو ما قبله من القرون.

ولعلنا، لو رجعنا أيضا إلى ما كتبه المؤرخون عن ديكارت وزملائه، فلاسفة عصر النهضة وعلمائها، لوجدنا هذه الظاهرة بالذات. وإذا كانت شخصية ديكارت التاريخية، هي شخصية الفيلسوف الذي وضع ما يسمونه " بالمنهج الديكارتي " طريقة جديدة للبحث عن الحقيقة، وتنظيم الأفكار والعلوم، فإن هذا لم يحل دون أن يكون ديكارت يومذاك عالما بالرياضيات محيطا باللاهوت الكنسي، مطلعا على التاريخ، مشاركا في العلوم الطبيعية النظرية والعملية التي كانت المجامع العلمية قد توارثتها عن الآباء والأجداد. وقد نسب إلى ديكارت أنه أول واضع للهندسة التحليلية. أي تطبيق الهندسة على الرياضيات. وفي هذه النسبة، صحيحة كانت أو باطلة في نظر التحقيق التاريخي، ما يدل على مشاركة ديكارت في علوم أخرى، غير الفلسفة العقلية النظرية والمدنية التطبيقية.

ولا بدع أن يبدو هذا الاتجاه الإنساني في ثقافة الأوروبيين عبر القرون الوسيطة وبداية عصر النهضة، لأن الثقافة الإسلامية العربية قد رشحت إليهم من العالم الإسلامي، بل انتقلت في مؤلفات عدد كبير من علمائه، وفقهائه، وفلاسفته، ممن كان ابن رشد، الفقيه الفيلسوف الأندلسي عنوانا لهم في الأوساط الغربية. ولعل فيما يروى عن تدفق الطلاب الغربيين على

مدارس قرطبة وغرناطة في القرون الوسطى ما يدلل على صحة هذه الحقيقة.

والخلاصة أن الإمام الصادق أبا عبد الله هو نموذج لإنسانية المعرفة في العصر الإسلامي الذهبي، بل بداية رائعة له. هيأت له أسباب هذه الإمامة أنه بالإضافة إلى ذكائه الوقاد وجهوده البالغة في البحث والتأمل والدراسة، كان من أولئك الملهمين الذين لا يجود التاريخي الإنساني بهم إلا في فترات متباعدة، يضاف إلى هذا أيضا أنه ثمرة من ثمرات أهل البيت النبوي الشريف ممن كانوا في الذروة من قادة العرب وأئمتهم.

والحق أن إمامته العلمية لم تكن مقصورة على أتباعه كما ذكرت آنفا. فقد رأينا في مجموعة الأخبار الواردة في الفصول السابقة أن عمرو بن عبيد، وهو من رجال السنة، قد أتاه يسأله عن أمر دينه ويستفتيه في شؤون مختلفة من الأوامر والنواهي الواردة في القرآن والسنة، وهو خبر طويل أوردته في المقدمة بنصه. كما أثبتت الأخبار التي أصبحت لها صفة التواتر أن أبا حنيفة النعمان وهو أحد مذاهب السنة الأربعة قد لازمه مدة سنتين من حياته الدراسية. وأن سفيان الثوري، وهو صاحب مذهب من مذاهب السنة قد لازمه وناقشه وحاوره وكان منه كما يكون التلميذ من أستاذه. وفي الأخبار السابقة ما يشير إلى بعض هذه المحاورات.

ولئن كان سواه من علماء العصر العباسي الذين تميزوا بالثقافة الإنسانية الشاملة قد برز في علم دون آخر فإن الإمام الصادق لم يكن في علم من هذه العلوم مقصرا به عن الآخر أبدا. لقد كانت الركائب تحمل إليه، طلاب الحكمة، وأصحاب الفقه، والفلسفة، وعلم الكلام، والعلوم الطبيعية،

واللغة، والنحو والصرف، والبيان والآداب في شعرها ونثرها، والتفسير، والسنة النبوية وأيام عرب الجاهلية والإسلام.

يضاف إلى هذا كله وقار، وهيبة، واستقامة، وصدق، وصراحة، وحسن بيان وتصرف، وقيادة حازمة لاتباعه، وسياسة ماهرة لأنصاره.

وطبيعي أن تكون مشاركته في النشاط السياسي مشاركة محدودة ضئيلة لسببين:

١ - أنه كان منصرفا إلى المعرفة متمسكا بزعامته المعنوية فقط بسبب الظروف التاريخية التي تحول دون تصرفه بالمقدرات السياسية للناس.

٢ - أنه كان من الرصانة في التفكير والبعد في النظر والمعرفة بأحوال الناس بحيث لم يكتف بالامتناع شخصيا عن المغامرة بمصير أصحابه مغامرة غير مأمونة النتائج، بل كان ينصح بني عمه بالامتناع عن القيام بكل نشاط ثوري لثقته من فشل كل محاولاتهم. وقصته مع أبناء عمه بصدد تصميمهم على الخروج على العباسيين، واجتماعه بهم في الأبواء ونصحه لهم بالامتناع عن استعمال القوة ضد الحاكمين العباسيين معروفة متداولة في أخبار التاريخ السياسي للعرب.

لقد كان يعرف ما يريد، لأنه كان يعرف ما يستطيع أن يريده.

فلا يتجاوز في نشاطه الحد الذي يهدم جهوده التعليمية، ويحول دون متابعة زعامته المعنوية.

والحقيقة أن الذين تهيئ لهم ظروفهم الاجتماعية والتاريخية ما هيأته هذه الظروف للإمام الصادق رحمه الله ورضي عنه، جديرة أن توردهم موارد المغامرة. وقد ثبتت سلامة طريقته حين تساقط الثوار المنتقضون على

الحكم من أبناء عمومته يومذاك تحت ضربات الحاكمين لأنهم خرجوا في ظروف غير مناسبة بعد أن استهوتهم عاطفة أنصارهم، وحماسة أتباعهم، فراحوا بين حبيس وقتيل ومشرد بينما بقي هو ومن اتبعه من إخوانه وأنصاره والمعجبين به، راسخين كالأطواد ثابتين لا تزعزعهم الرياح العاصفة والرعود السياسية المدوية. واستطاع بحكمته هذه أن يترك لمن بعده تراثا غنيا في حقل المعرفة والأخلاق.

العلوم التي شارك فيها

قلت إن مشاركة الإمام في المعرفة كانت مشاركة شاملة، وأن جهوده في نقل التراث الفكري والديني إلى الأجيال من بعده جهود فائقة الأثر، بالغة القيمة. وكان من خير نتائج هذه الجهود أنه ترك وراءه مدرسة فكرية خاصة، يأتم بها الناس من بعده. ترك تعاليم من عنده لطلابه، ومنهجا محددا للباحثين على طريقته، وحلولا لكل مسألة عرضت له، للمهتمين بتراثه.

أما التعاليم فكان على رأسها التوجيه المعنوي الذي يعتبر اليوم أساسا أوليا لكل روح علمية خالصة. جاء عن عمرو بن أبي المقدام، وهو أحد الثقات من مشاهير رجاله أنه: دخل يوما على الإمام أبي عبد الله، وهي المرة الأولى التي يقابله فيها فبادره الإمام الصادق قائلا، تعلموا الصدق قبل الحديث (١) وهو بقولته هذه إنما يضع حجر الأساس الأساس لتقرير كل رأي وتبين كل حقيقة علمية. فلم تحصد الإنسانية من مفاسد الجهل

----

(١) الكافي: باب الصدق وأداء الأمانة.

بالحقائق العلمية مثل الذي حصدته من مفاسد الكذب والانتحال والتحريف. فالعلم الحقيقي، رواية كان أو دراية، هو الذي يستند إلى خلق سليم، إلى تحرر تام من النزعات الشخصية والانحرافات السياسية والمصالح الآنية ويستند بالتالي إلى محاسبة عسيرة مخلصة للنفس، على كل ما يصدر عنها من قول وعمل. ولعل أخطر ما تهتم به الأوساط العلمية اليوم هو تنشئة الناشئة على الصدق في رواية الخبر، والصدق في مجابهة المشكلات، والصراحة في الإدلاء بالحلول. فالخلق الصادق في نظر الإمام شئ يأتي قبل المعرفة. المعرفة فن وتقنية (تكنيك)، إنها أسلوب في جمع الحقائق وطريقة في التمحيص، ومنهج في جمع الشواهد وتصنيفها أما الخلق السليم الصادق، فهو روح الأمة، وبالتالي، روح كل ما يصدر عنها من علم وسياسة وقانون وفقه وفنون. وقد استهدى رحمه الله هذه الحقيقة من القرآن الكريم والسنة. أما القرآن ففي قوله تعالى: وإنك لعلى خلق عظيم، وأما السنة ففيما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

والصدق لا يكون صدقا في الاقبال على العبادة وأداء الطقوس الدينية أي صدقا في تنظيم العلاقة بين الفرد والله فقط، فهو وحده شئ أضعف من أن يحقق للإنسان رسالته، بل هو الصدق في علاقته الاجتماعية، أي صدق في النضال، صدق في التحقيق العلمي، صدق في الكشف عن عورات الناس، صدق في تصوير عواطف الناس ومشاعرهم، صدق في التصوير الفني والأدبي على اختلاف أساليبه. إن هذا الصدق، وهو امتداد لصدق العلاقة بين الفرد والله، هو الذي يفسر معنى قول الإمام رحمه الله: تعلموا الصدق قبل الحديث.

والإمام الصادق لم يقتصر في توضيح تعاليمه الأساسية على هذه الكلمات الثلاث، فقد ألحق بها أقوالا أخرى تكشف عن حقيقة ما يستهدفه.
قال فيما رواه صاحب مجالس الشيخ الصدوق (١): " لست أحب أن أرى الشاب منكم إلا غاديا في حالين، إما عالما أو متعلما، فإن لم يفعل فقد فرط، وإن فرط فقد ضيع، وإن ضيع فقد أثم. " وجاء في المصدر نفسه، " واطلبوا العلم تزينوا معه بالحلم والوقار. " وأيضا: " وتواضعوا لمن تعلمونه العلم، وتواضعوا لمن طلبتم منة العلم، ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم (٢). " وجاء في أخباره أيضا: " لا تطلب العلم لثلاث: لترائي به، ولتباهي به، ولتماري به. ولا تدعه لثلاث: رغبة في الجهل، وزهادة في العلم، واستحياء من الناس، والعلم المصون كالسراج المطبق عليه (٣). "
هذا قليل من كثير جدا ورد في معرض حديث الإمام عن الخلق العلمي والصراحة في مجابهة قضايا المعرفة ومشكلاتها. نكتفي به إيثارا للإيجاز مع الوضوح.

(١، ٢) مجالس الشيخ الصدوق، المجلس (١١) والمجلس (١٧) منقولا عن كتاب، " الإمام الصادق " بقلم محمد الحسين المظفري.
(٣) البحار " ١٧: ٢٧٠ ". منقولا عن كتاب " الإمام الصادق " بقلم محمد الحسين المظفري.

منهجه

إن أخطر قضايا المعرفة التي جابهت أرتال المفكرين من قمم الحضارات المختلفة هي قضية المنهج. فكما أن العلم صدق في روحه، وصراحة في قواعده، فهو منهج أيضا في طريقة معالجته لقضاياها المختلفة.

لقد كانت المعركة بين الطغيان الفردي والحكم الديمقراطي معركة منهج، وكانت المعركة بين الكنيسة وعلماء القرون الوسيطة معركة منهج أيضا، وكانت المعركة بين صاحب الدعوة الإسلامية والمشركين في بداية عهد العرب بالإسلام معركة منهج، وكانت المعركة بين الفرق الفلسفية ومن وراءها من الأنصار الرسميين والشعبيين في التاريخ الإسلامي معركة منهج أيضا.

ولا بدع أن تكون هذه المعارك كلها من أجل منهج مرسوم. لأن المنهج هو الطريقة التي يكشف بها عن أشياء الإنسان والطبيعة، هو الأسلوب الذي به يتميز الحق من الباطل والصواب من الخطأ والخير من الشر.

لقد احتدمت المعركة بين الطغيان الفردي والديمقراطية، لأن المنهج الطغياني الفردي في المعرفة كما هو السياسة والاجتماع، غير قابل للتطور. إنه قولبي تظهر خصائصه الموحدة في كل نتاج للفرد والجماعة. يرى في كل تصوير زندقة، وفي كل حرية هرطقة. فيه عقل تفرضه سلطة

عليا معصومة عن الخطأ راغبة عن كل جديد. أما المنهج الديمقراطي في المعرفة كما هو في السياسة والاجتماع فهو شعبي، متحرك، للفرد فيه كما للجماعة طابع خاص، يتطور ويتنوع، تظهر فيه الوحدة متنوعة، ويظهر فيه التنوع ذا وحدة عامة. أما العقل فيه فهو عقل حر، فردي وجماعي في الوقت نفسه، مستعد دائما للرجوع عن خطأه، تصبح عنده الهرطقة خطأ في التفكير، وتتحول الزندقة في نظره، انحرافا عن الوجه المنطقي السليم. وانتصرت الديمقراطية لأن الحرية العقلية في تحرقها وتطورها واستعدادها لمحاسبة نفسها قد انتصرت.

وقد احتدمت المعركة بين الكنيسة وبعض علماء القرون الوسطى، لأن المنهج الكنسي منهج مرتبط بأسرار دينية ومسلمات فكرية لا حول له عنها. ولذلك فهو يشجب كل ما لا يتفق مع مقاصد هذه المسلمات وتلك الأسرار. أما منهج الثائرين من علماء القرون الوسطى فهو منهج يؤمن بالتجربة، ويثق بقدرة العقل على التفكير الحر، ويشجب الأسرار في كل نشاط اجتماعي أو ديني أو سياسي أو اقتصادي.

والتجربة لا تكون صحيحة، ما لم تكن حرة في إخضاع كل شئ، بل في إخضاع كل وجود لوسائلها الفنية وطرائفها التكنولوجية. وانتصر منهج الثائرين من العلماء، لأن التجربة التي نادوا بها وانتصروا لها، قد اكتسبت يوما بعد يوم مزيدا من الجنود، ومزيدا من القوة، ومزيدا من الثقة في نفوس الناس.

وقد احتدمت المعركة بين الرسول العربي، عليه السلام، وبين المشركين العرب من خصومه، لأن منهج المشركين تستغله الفئة الحاكمة من

قريش، تفرض به حقها في جمع الإتاوة من الناس باسم الأصنام التي كانوا يعبدون، وتذهب بحق الفصل في شؤون الناس، باسم السدانة التي بها كانوا يتمتعون. وتفرض بها الفرقة بين القبائل والعائلات لتحتفظ بسلطانها الذي كانوا به يسيطرون. في لحمة حياتها وسداها، نسيج من الأساطير، والسطحية العمياء، والجمود المنطوي على نفسه، وطغيان التقاليد. ولأن منهج محمد، منهج في طبيعته التوحيد والمساواة، والكف بالحرية العقلية، والسخرية بالأساطير والتقاليد، والتحرر من طغيان الأصنام، والصنمية في مختلف مظاهرها، وهو منهج في طبيعته الحركة والتطور، وتناغم تام بين حرية الفرد وحرية الجماعة. في منهجه ديمقراطية العقيدة التي لا تميز فردا عن فرد وأمة عن أمة، وفي منهجه شعبية الفكر الذي به تتسع آفاق العقل، وتفقد به الأسرار السخيفة، والتقاليد الرجعية، عصمتها. وهكذا تزلزلت قاعدة الحياة الجاهلية فسقطت رؤوس طالما حكمت، وطبقات طالما استبدت، وأساطير طالما شاعت وانتشرت، وانتصر المنهج الإسلامي، لأن العقل الشعبي الديمقراطي المتحرك قد انتصر وثبتت ركائزه.

وقد احتدمت المعركة فيما بعد بين الجبرية والقدرية، بين أصحاب الرأي وأصحاب الحديث، بين الأحرار من المفكرين، وبين عبيد الحرف. كانت المعركة بين هؤلاء وأولئك معركة غير فاصلة، كما هي في كل عصر وفي كل حضارة، ينتصر فيها أصحاب الرأي تارة ويثبت أصحاب الحديث أو الجبريون أقدامهم بها تارة أخرى. أما يوم ظهور الإمام الصادق، فهو في الحقيقة يوم أصحاب الرأي من أحرار الفكر، الذين

لا يتورعون عن الأخذ بكل جديد، والدخول في كل تجربة، والقيام بكل محاولة، عدتهم في ذلك كله العقل الحر، العقل الذي يبحث عن الحقيقة في مصادرها في غير تردد أو خوف. إنه العقل الذي استطاع أن يرى في العقيدة شيئا لا يتعارض مع معنى وجوده ومبرر نشاطه ونضاله.
إنه العقل الذي وجد ليحيا، ليتنفس الهواء النقي، لينطلق عبر الحدود والتخوم، مستهديا بطبيعته التي غرست فيه، مستندا إلى ما انطوى في نفسه من توق نحو كل جديد وتحدي كل معضلة. إنه العقل الذي يؤمن بالحركة الدائمة، فيعمل وكأن الوجود صفحة خالدة يتنقل أبدا بين سطورها في غير خوف من العدم.
لهذا كله كان الإمام الصادق في جبهة تناوئ أعداء حرية العقل، فكان رحمه الله يربط بين الحرية العقلية وتمام الإيمان، فيقول: " العقل دليل المؤمن (١) " ويقول أيضا: " دعامة الإنسان العقل (٢) " كما يروى عنه أنه قال: " لا يفلح من لا يعقل (٣) ".
ولعلي لا أبالغ إن قلت: إن الإيمان الأتم في نظر الإمام الصادق هو الإيمان الذي يستضئ بنور العقل: " لأن التقليد في العقليات لا يصح عند أرباب العقول. (٤) والإيمان كما أخبرنا الإمام في مناسبات مختلفة هو قضية عقلية أو على الأقل من مقتضيات المنهج العقلي السليم. يضاف إلى هذا كله ما رويناه في الفقرة السابقة من اعتقاد الإمام أن دعامة الإنسان هو عقله وأن من لا عقل له لا يمكن أن يفلح أبدا.

(١، ٢، ٣): الكافي: باب العقل.
(٤): الإمام الصادق لمحمد الحسين المظفري: ص: ١٦٤.

ولمعجب حقا أن الإمام من القائلين بوجود العقل فطرة. وإذن، فكل ما يحد من نشاط هذا العقل أو يقضي عليه، هو محاربة صريحة لفطرة الله التي خلق الناس عليها. وها هو القرآن الكريم نفسه يشير إلى هذه الظاهرة في معرض البرهنة على وجود الله فيقول: " أفي الله شك فاطر السماوات والأرض؟ " فكأن القرآن هنا إنما يعتبر الشك في وجود الله، شكا في فطرة الناس، في جوهر العقل الذي غرسته العناية الإلهية وطالبتنا بتنميته ورعايته.

وهكذا يتبين لنا بعد هذه المقدمات أن الصدق العلمي والمنهج العقلي في تمحيص الحقائق هما القاعدتان اللتان انطلق منهما الإمام لإنشاء مدرسته العلمية، ومجابهة المشكلات التي تعترضه. بالحلول التي يستوجبها من هاتين القاعدتين.

وبفضل هاتين القاعدتين ننعم نحن اليوم بتراث حضاري، هو من تراث الإنسانية في مركز الصدارة. ولا يزال تراثنا هذا، قادرا على تزويدنا بأسس نهضة جديدة، ومعاودة نشاطنا السابق في الاسهام بخدمة قضايا البشر والتعرف إلى حقائق الطبيعة والإنسان.

أما الفروع العلمية والفكرية التي شارك فيها الإمام فهي تلك التي عرفها عصره وتميزت بها حضارة الإسلام في أواخر القرن الأول وأواسط القرن الثاني من الهجرة. وهي:

الحكمة – علم الكلام – علم الطبيعيات والكيمياء – علم اللغة والنحو والصرف – علم الحديث – علم الفقه – علم الأصول الخ...

علم الكلام
هو من العلوم التي فرضتها ظروف المجتمع الإسلامي يومذاك. أنه نتيجة طبيعية لضعف نشوة الإيمان الساذج في نفوس المؤمنين، وظهور موجات من التساؤل حول كثير من القضايا والحقائق التي كان يسلم بها المؤمنون من قبل، إما لسلامة فطرتهم، أو لانشغالهم بالفتوح وهمومها، والجهاد ومسؤولياته، عنها.
ولكن الواقع أن العرب المسلمين لم يكادوا يتصلون بأصحاب الأديان الأخرى من عرب وعجم، ولم يكادوا يستقرون فيما فتح الله عليهم من الأرض، ورزقهم من الطيبات، وهيأ لهم من السلطان، حتى بدأت التناقضات تظهر عندهم، والأسئلة المتعلقة بالإيمان والذات الإلهية وحرية الإنسان والخلود والوجود والعدم تبعث رغبة عنيفة في أنفسهم، في التعريف على أجوبتها. وكانت هذه الرغبة بادئ الأمر رغبة حيية خجلة، قلقة الخطى، غامضة المحجة، ثم اشتد عودها وظهرت ضرورتها، فأقبل المفكرون من المسلمين يعيدون النظر في كل ما كان عندهم من المسلمات والبدهيات الاعتقادية، يستعينون تارة بمنطق اليونانيين، وتارة أخرى بفلسفة الأفلاطونية الحديثة التي كان لها تأثير كبير في توجيه التفكير الإسلامي.
لقد وجد يومئذ من ينكر وجود الله مستعينا على إثبات وجهة نظره بالمنطق اليوناني والتراث الإفلاطوني الحديث أيضا، ووجد يومئذ من يحمل

الإنسان مسؤولية عمله، أو من يرفع عنه كل مسؤولية ويبرئه من كل إثم. وقد استعان كل منهما بالمنطق اليوناني أو بالتراث اللاهوتي الذي عرفته مدارس الإسكندرية والرها وقنسرين أو غيرها من مدارس الشرق الأوسط.

وأصبح الإسلام في حاجة ماسة إلى من يدفع عنه شبهات الزنادقة، والدهرية، وخصومه من سدنة الأديان الأخرى. أصبح الإسلام في حاجة إلى من يكشف عن روعة التوحيد فيه، ومعنى المسؤولية الأخلاقية عنده، ومعنى الحشر والحساب والعقاب والجنة والنار الخ... فظهرت التيارات المختلفة وارتسمت في آفاق الفكر الإسلامي، المذاهب المتباينة في وسائلها، والمتفقة في أهدافها ومقاصدها. فسميت مجموعة هذه الاجتهادات، والدفوعات المبنية على المنطق المنظم والاستدلال العقلي (بعلم الكلام.)

وطبيعي أننا سنكتفي فيما يلي بعرض خلاصة قصيرة جدا لمشاركة الإمام الصادق أبي عبد الله رحمه الله في تحقيق قضايا هذا العلم وتمحيص مشكلاته.

روي عنه أنه قد أملى على المفضل بن أبي العوجاء. رسالة في الوجود والتوحيد، وهي رسالة إضافية لا سبيل إلى نقل نصوصها كاملة كما وردت لطولها. ولذلك نكتفي بذكر أهم ما ورد منها:

بدأ الصادق رسالته هذه بالتحدث عن عقلانية معنى وجود الله، وأن نظام الطبيعة الخارق في دقته، والرائع في تسلسل حلقاته، والمتماسك في أجزائه، يفرض علينا أن نرفض فكرة المصادفة في تجمع هذه الكائنات، وفكرة خلود المادة، تلك التي يقول بها الدهرية والملحدون.

هذا فيما يتعلق بالحلقة الأولى من الرسالة. أما في الحلقة الثانية فقد

تحدث رحمه الله عن الحيوان وأنواعه، والحكمة في خلقه مفصلا موضحا مفندا أقوال الخصوم، ثم ربط تفصيله لخصائص الكائنات الحية، أنواعها، وطبقاتها، بفكرة الله ووجود الخالق والمخلوق.

وفي اليوم الثالث بدأ يملي حلقته الثالثة، فتحدث مطولا عن نظام الكواكب العجيب، وعقلانية تنظيم الأجواء، وعلاقة الإنسان بهذه وتلك رابطا هذا كله أيضا بفكرة الوجود الإلهي ووحدانيته.

وفي اليوم الرابع تحدث عن الأوبئة والأمراض والآفات المختلفة التي تصيب الإنسان والحيوان والنبات وعقلانية علاقتها بخالق الوجود ووحدانيته أيضا.

كما نسبت إلى الإمام الصادق رسالة " الإهليلجة " التي أنكر صاحب الفهرست، ابن النديم، نسبتها إليه، وقرر استحالة هذه النسبة. ولكن الجمهور من أتباع الإمام يؤكدون صحة نسبتها رغم خلوها من الأسانيد التاريخية التي تسندها. وتأكيدهم هذا راجع إلى ما في الرسالة من إشارات تدل دلالة واحدة على ضرورة صدورها عن الإمام.

ومهما يكن الأمر فإن الإمام الصادق كان أحد رواد علم الكلام ما في ذلك ريب، وأول ما كان يسعى إليه هؤلاء الرواد وعلى رأسهم الإمام نفسه، هو إثبات وجود الله ووحدانيته وعلاقة صفاته به.

ورسالة الإهليلجة محاولة تشبه الرسالة السابقة التي أملاها الإمام الصادق على المفضل بن أبي العوجاء وخلاصتها: إلزام أحد الأطباء المنكرين لوجود الله خلاف ما يذهب إليه، وذلك عن طريق تبني مقدماته الخاصة

بنظرياته الطبية، والاستشهاد بحقائقه الطبية المسلمة، ثم الخروج منها كلها إلى إثبات الوجود الإلهي ووحدانيته وتنزيهه عن التجسيم.
وخلاصة رأي الإمام في هذه القضايا الكلامية هي ما يلي:
١ - إن الله موجود، واحد، خالد أبدي، خلق الخلق من العدم، بإرادته كانوا، وبإرادته يزولون.
٢ - إن الله لا يوصف بصفات مادية، فليس كمثله شئ. قال الإمام خلال بعض ردوده فيما رواه الكافي في باب " النهي عن الجسم والصورة ": " لا جسم ولا صورة، وهو مجسم الأجسام، ومصور الصور، لم يتجزأ ولم يتناه، ولم يتزايد ولم يتناقص. لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق ولا بين المنشئ والمنشأ، لكن هو المنشئ، فرق بين جسمه وصوره وأنشأه، إذ لا يشبهه شئ ولا يشبه هو شيئا. "
٣ - إن الله قديم غير حادث. وقد فند الإمام حجج القائلين بالحدوث مؤولا الآيات القرآنية المتشابهة التي قد يفهم منها، غير الراسخين في العلم، شيئا يدل على الحدوث من مثل قول الله تعالى: " ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا " الآية. فقال الصادق مؤولا هذا النص القرآني الحكيم كما ورد في باب الحركة والانتقال من كتاب " التوحيد ":
" هو واحد، واحدي الذات، بائن من خلقه، وبذلك وصف نفسه.
وهو بكل شئ محيط بالإشراف والإحاطة والقدرة. لا يغرب عنه ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر ولا أكبر، بالإحاطة والعلم لا

بالذات، لأن الأماكن عنده محدودة تحويها حدود أربعة، فإذا كان بالذات لزمتها الحواية. "

٤ - إن الله ذات لا تدركها الأبصار في دنيا وآخرة، في حياة وموت، يستوي في ذلك، كل الناس، وكل المخلوقات على اختلاف درجاتهم وتباين أعمالهم وحظوظهم من رضى الله ورضوانه.

وقد أجاب الإمام على سؤال معاوية بن وهب حول: هل رأى رسول الله ربه؟ وعلى أي صورة رآه؟ وما جاء في السنة من أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في الجنة؟ فكانت خلاصة جوابه: أن رؤية النبي عليه السلام هي رؤية بالقلب لا بالبصر وكذلك شأن المؤمنين حين يكونون في الجنة فيرون ربهم.

أما القضايا الكلامية الأخرى، التي امتلأت بها كتب علماء الكلام، من مثل فكرة العدل وقدم القرآن وحدوثه ومسؤولية الإنسان عن أعماله مما دبجت له آلاف الصفحات في مئات الكتب فلم يشارك فيها الإمام مشاركة مباشرة فعالة واسعة المدى في حدود تصديه لقضية " الكلام " الأساسية التي هي وجود الله ووحدانيته وتنزيهه عز وجل.

- من مناظرات الإمام -

روي عن هشام بن الحكم أن أحد الزنادقة ممن كانوا يبثون الشبهات حول الدين قد جاء الإمام الصادق " ع " وهو في البيت الحرام. وبعد أن تقابل

الرجلان وتبادلا حديثا قصيرا بينهما قال الإمام الصادق للزنديق: انتظر حتى أفرغ من الطواف ثم إئتنا نحدثك فنرى ما عندك.

ولما فرغ أبو عبد الله من طوافه وصلاته، أتاه الزنديق، فقعد بين يديه وتلامذة الإمام – ومنهم صاحب الرواية هشام بن الحكم، مجتمعون عنده.

قال أبو عبد الله للزنديق: أتعلم أن للأرض تحتا وفوقا؟

قال: نعم.

قال: فهل دخلت تحتها؟

قال: لا.

قال: فما يدريك ما تحتها؟

قال: لا أدري إلا أني أظن أن ليس تحتها شئ.

قال أبو عبد الله: فالظن عجز فلم لا تستيقن؟ ثم أردف الصادق يقول: أفصعدت إلى السماء؟

قال: لا.

قال أفتدري ما فيها؟

قال: لا.

قال الإمام: عجبا لك لم تبلغ المشرق ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل إلى الأرض، ولم تصعد إلى السماء ولم تجز هناك فتعرف ما خلفهن، وأنت مع ذلك جاحد بما فيهن، فهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟

قال الزنديق: ما كلمني بها أحد غيرك.

فقال أبو عبد الله: فأنت من ذلك، إذن، في شك، فلعله هو ولعله ليس هو؟

قال: لعل ذلك!
فقال أبو عبد الله: أيها الرجل ليس لمن لا يعلم حجة على من يعلم، ولا حجة للجاهل. فيا عبد الملك – وهو اسم الزنديق – إفهم عنا، فإنا لا نشك في الله أبدا. أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان ويرجعان، فقد اضطرا ليس لهما مكان إلا مكانهما؟ فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم لا يصير الليل نهارا والنهار ليلا؟ لقد اضطرا إلى دوامهما والذي اضطرهما هو أحكم منهما وأكبر.
قال الزنديق: صدقت.
ثم قال أبو عبد الله: يا عبد الملك: إن الذي تذهبون إليه وتظنون أنه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم فلم لا يردهم؟ وإن كان يردهم فلم لا يذهب بهم؟ القوم مضطرون وأنت تعلم ذلك. ثم لم السماء مرفوعة، والأرض موضوعة، فلا تنحدر السماء إلى الأرض ولا تنحدر الأرض فوق طباقها، فيتماسكان ويتماسك من عليهما؟
قال الزنديق: أمسكهما الله ربهما وسيدهما.
وتقول الرواية أن الزنديق بعد مجالسة للإمام رضي الله عنه قد آمن وأنه قد أصبح من تلامذته. وأن الإمام الصادق قد قال لهشام بن الحكم: خذه إليك. فعلمه هشام وحسنت طهارته حتى رضي بها الإمام الصادق أبو عبد الله. هذه واحدة من المناظرات التي ترويها كتب الكافي وبحار الأنوار وأعيان الشيعة وغيرها مما امتلأت به المكتبة الإسلامية. وطبيعي أنني لم أنقلها بنصها تماما – فقد أدخلت عليها تعديلا طفيفا – لكي أضع بين يدي

القارئ صورة كاملة لمجالسه ومناظراته. من الخير لمن يرغب في التزود من هذه المجالس والمناظرات أن يرجع إلى مصادرها المعهودة.

علم الطلب

دفع المسلمون الأوائل دفعا شديدا إلى الاهتمام بعلم الطب والاطلاع على موسوعاته وأبحاثه المختلفة. فقد تنوعت مآكلهم ومشاربهم، وتزاحمت المسؤوليات ترهق أعصابهم، وتتابعت الأوبئة تحصد منهم المئات والآلاف. إذ لم يعودوا في صحراء صافية الأديم، بسيطة المأكل، هادئة، بعيدة عن مفاجآت الحكم والسياسة، ومشاكل الرزق اليومية، لم يعد العرب في مثل هذه البيئة. ولذلك فرضت عليهم ظروف حياتهم أن يهتموا بالطب والأطباء. وكانت لكل عالم من علمائهم الخالدين، مشاركة في هذا العلم، وعلى رأسهم الإمام الصادق نفسه.

والحق أن العقائد والتقاليد لم تقف دون انتشار هذا العلم شأنها مع العلوم النظرية. ولهذا انتشرت الطبابة وذاعت كتب الطب وأصبح هذا العلم ضرورة لا يستغني عنها كبار المثقفين وأوساطهم.

وكان من رأي الإمام الصادق أن كتاب الله تعالى قد أوجز مهمة الطبابة في هذه الكلمات الثلاثة التي أوردها في معرض النصيحة والتوجيه:

" كلوا واشربوا ولا تسرفوا "

وجاء في رسالة المفضل ابن أبي العوجاء ما يدل على علم الإمام بفنون من الأشربة، والأطعمة، وأنواعها، وتأثيرها، وعلاقتها بطبائع الإنسان، ثم الأدوية

وفوائدها. وجاء مثل ذلك أيضا في رسالة " الإهليلجة " التي ناظر فيها الطبيب الهندي، فقد أورد خلال هذه المناظرة من الاستشهادات والإشارات الطبية، وذكر من أسماء الأدوية ما يدل على معرفته بالثقافة الطبية عهد ذاك.

والحقيقة أن الطب في القرن الهجري الثاني علم نظري أكثر منه عملي. فقد كان العلماء فيه يعتمدون على مقدمات نظرية، ينقصها التمحيص والتحقيق والاختبار العملي، ولهذا لم يكن علم الطب من السعة والشمول والاختصاص كما هو اليوم.

ولهذا كله أيضا كان علم الطب فرعا من الفروع التي يفرض على كل متفلسف؟ أو دارس فلسفة، أن يضطلع بها، ويطلع على أسرارها. وبقي الأمر كذلك حتى عهد متأخر من العصر العباسي. وكان ممن تخصصوا في تطبيب الناس، وسموا بالأطباء، مطالبين أيضا بالاطلاع على الأبحاث الفلسفية النظرية التي فصلت اليوم فصلا تاما عن العلوم التطبيقية كلها من طب وهندسة وغيرهما.

وقد نسبت إلى الإمام نصائح صحية وتوجيهات طبية منها: " إنا أهل بيت لا نتداوى إلا بإفاضة الماء البارد يصب علينا. " " إن لكل ثمرة سما فإذا أتيتم بها فأمسوها الماء واغمسوها في الماء. "

والرجوع إلى كتاب الأطعمة والأشربة يطلع القارئ على كثير من هذه التوصيات والتوجيهات الطبية.

علم الكيمياء

الحق أن هذا العلم هو " ملحمة " المعرفة البشرية. وموضع اهتمامها.

فكأن في غريزة الناس، منذ كانت التجربة، أي منذ كان الناس، شيئا ينبئ بخفاء بالغ، عن عظمة هذا العلم وقيمته في تسهيل أسباب العيش، وتذليل الطبيعة والكشف عن أسرارها.

والقضية الكبرى في هذا العلم هي قضية " حجر الفلاسفة ". لقد كانت حاجة الناس إلى الذهب تدفعهم إلى الإيمان بإمكانية تحويل المعادن. وكانت التفاعلات الأولية بين الأجسام تساعدهم على الإيمان بإمكانية هذا التحويل.

ولا أبالغ إن قلت، بأن المكتشفات الكيميائية الفيزيقية التي تمت على أيدي علماء القرن العشرين هي نتيجة طبيعية للرغبة الكامنة في نفوس أفراد كل الشعوب في تحويل المعادن. حتى أن تفجير الذرة نفسه، هو نتاج طبيعي لسلسلة من الحلقات، أخذ بعضها برقاب بعض في دراسة جوهر المادة وأسرار تكونها، تمهيدا لتحويل هذه المادة من معدن إلى معدن.

وحدثت كل هذه الاكتشافات، ولكن التحويل الذي كان يحلم به أجدادنا كلهم، لم يتحقق حتى اليوم بالمعنى الذي كانوا يعنونه، والغاية التي كانوا إليها يقصدون.

والمعروف أيضا أن أحد الأساتذة العرب الأولين في الكيمياء هو جابر بن حيان، صاحب عدة اكتشافات في حقل الحوامض والزيوت.

وجابر بن حيان هذا، هو تلميذ من تلامذة الإمام الصادق. أخذ عنه هذا العلم، ثم تابع جهوده حتى أصبح بعد أستاذه مرجعا للدارسين.
وقد تحدث كثيرون من رجال الاستشراق وعلماء العرب المحدثين عن جابر بن حيان هذا، وعلاقته بأستاذه الإمام. من بينهم كراوس الذي أثبت تشيع جابر. والأستاذ أحمد زكي الذي فند الأوهام المتعلقة بحقيقة شخصيته والمسائل التي كان ينسبها إلى أستاذه الصادق (ع).

حكمه

كانت الحكمة وما تزال عند كل شعب، وفي كل عصر، سجلا تتلخص فيه الشخصية، وتتبلور فيه الأخلاق والخصائص الفردية والجماعية. والحكمة من تاريخ كل أمة هي أول محاولة لتفسير الوجود، وتنظيم العلاقات، وتهذيب النفوس، وتفسير كثير من الحقائق الاجتماعية والنفسية والسياسية.
بل أكاد أقول: إن الحكمة هي جماع ثقافة الأمة قبل ظهور التخصص والتفرغ والتنظيم الدقيق، أي قبل ظهور المنهجية العلمية والمنطق العقلاني المنظم.
فالعرب في الجاهلية قبل الإسلام لم تحفظ لهم، غير الأمثال السائرة، والحكم الناضجة، التي صيغت صياغة تعبيرية رائعة، تتميز بالوضوح والبلاغة.
وجاء العصر الإسلامي فلم تفقد الحكمة قوتها بل أضيفت إلى تراثها القديم، مكتسبات جديدة، وخبرات متنوعة مختلفة، فرضتها أحوال

المعيشة الجديدة بعد انتقال العرب من البداوة إلى الحضارة، ومن الرحلة الدائمة إلى الاستقرار الدائم، ومن القلة إلى الكثرة، ومن نظام القبيلة إلى نظام المدينة، ومن سلطة الشيخ إلى سلطة الحكومة المنظمة. فلبست الحكمة بفضل هذه الظروف الجديدة، لبوسا آخر غير لبوسها، وحاولت على طريقتها في التلخيص الشديد أن تعطي حلولها القصيرة الواضحة لأعقد المشكلات التي كانت تعترض المجتمعات الإسلامية يومذاك.

ونحن رغم اعترافنا بظهور المجلدات الكبيرة التي يعالج أصحابها مشكلة أخلاقية على حدة، أو مشكلة سياسية، وأخرى اجتماعية، فإننا لا يسعنا إلا أن نعترف أيضا بأن الحكمة قد بقيت في أوساط هذه المجتمعات متداولة بين الناس، تمثل جانبا مهما من ثقافتهم، وتصور جزءا غير ضئيل من معنى حضارتهم.

وما تزال ثقافة العامة حتى يومنا هذا ثقافة مركزة في مجموعة الحكم التي يتداولها الأبناء عن الآباء، والتي بها يفصلون في كثير من القضايا، والتي بها يحددون سيرهم وسلوكهم والنجاح الاجتماعي الذي سجلوه.

فإذا صح ما ذكرناه في الفقرات السابقة، فقد وجب علينا أن نرى في حكم الإمام الصادق، هذا اللون من الثقافة التي تحمل طابعا قوميا وحضاريا في الوقت نفسه.

وها نحن نورد فيما يلي بعضا من هذه الحكم:

١ - إن الثواب على قدر العقل.

٢ - أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا.

٣ – كمال العقل في ثلاث: التواضع لله، وحسن اليقين، والصمت إلا من خير.
٤ – من فرط تورط، ومن خان العاقبة تثبت عن الدخول فيما لا يعلم.
٥ – العلماء أمناء، والأتقياء حصون، والأوصياء سادة.
٦ – لا يقبل الله عملا إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لا يعمل فلا معرفة له، ألا إن الإيمان بعضه من بعض.
٧ – المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل.
٨ – إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.
٩ – لا تشعروا قلوبكم الاشتغال بما قد فات، فتشغلوا أذهانكم عن الاستعداد لما لم يأت.
١٠ – من أنصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره.
١١ – إن الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب.
١٢ – ما من أحد يتيه إلا من ذلة في نفسه.
١٣ – أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من دونه، ولم يصفح عمن اعتذر إليه.
١٤ – احذر من الناس ثلاثة: الخائن، والظلوم، والنمام، لأن من خان لك خانك، ومن ظلم لك سيظلمك، ومن نم إليك سينم عليك.

١٥ – ثلاثة أشياء يحتاج إليها الناس طرا: الأمن، والعدل، والخصب.
١٦ – ثلاثة تكدر العيش: السلطان الجائر، والجار السوء، والمرأة البذيئة.
١٧ – لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق.
١٨ – إن من أجاب على كل ما يسأل لمجنون.
١٩ – المؤمن يداري ولا يماري.
٢٠ – من حقيقة الإيمان أن تؤثر الحق وإن ضرك، على الباطل وإن نفعك، وألا يجوز منطقك عملك.

هذه عشرون حكمة أوردها لا على سبيل الحصر بل في معرض التمثيل. فقد روى كل من أصحاب: الكافي وحلية الأولياء والبحار وغيرهم عشرات من مثل هذه الحكم التي لخص بها الإمام تلخيصا معجبا حقا، وجهة نظره في كثير من قضايا الإنسان والمجتمع.

وقد حاولت كما يلاحظ القارئ أن أنقل من هذه الحكم أصنافا متنوعة بحيث يستطيع بعد قراءتها أن يكون فكرة تقريبية عن شخصية الإمام وطريقة معالجته لكل ما يعرض له.

وفي رأيي أن هذه الخطوط، التي نسميها الحكم، تستطيع أن تعطي لو جمعت ونسقت ونظمت، اللوحة التالية:

يقول الإمام: ما معناه " أنا مؤمن بالإنسان العاقل، لأن العقل في نظري هو دليل صاحبه إلى الحقيقة، والحقيقة الكبرى هي الله. وإذن

فطريق المؤمن إلى الله هو طريق العقل. ينتج عن هذا، أن الثواب الذي يثاب به المؤمن هو في حدود ما يعقله من الخير ويؤمن به. فلا يفعل الخير تقليدا وخضوعا لمن هو أكبر منه، أو خوفا من المجتمع الذي يراقبه، بل يفعله لأنه مقتنع به، مؤمن بضرورته، واثق من حسن نتائجه، مدرك لرضا الله عنه.

وليس العقل في رأيي عملية وعي وإدراك فقط، ففعاليته لا تكون إلا حين يرتبط بمفهوم أخلاقي خاص. يرتبط بالتواضع، والصدق، والاستقامة، وحسن الظن بالناس، والصمت عن كل شئ إلا فيما ينفع الناس ويرضي الله. وهو مرتبط أيضا بالاعتدال في كل شئ، في الحب والكره، والكرم والبخل، والسرعة والبطء، فلا إفراط ولا تفريط.

أما العلم ففي قاعدته حسن الأخلاق. وقيمة العلم في تطبيقه. لأن المعرفة التي لا تدفع صاحبها إلى العمل شئ غير موجود.

وينتقل الإمام بعد ذلك فيحدثنا بما معناه، عما نسميه اليوم ب " الخلق المتحضر " فلا يسير فيه المرء مع شهواته وينسى ما التزمه من قواعد العمل في حياته، حين يستفزه الغضب، أو يرضيه الغنى والسلطان. فالمؤمن أي المتحضر الذي يعيش إنسانيته عيشا حقيقيا هو الذي لا ينسى الحق عند غضبه ولا يقبل بالدخول في الباطل عند رضاه.

وكم يعجبني أن أكتشف خلال هذه الحكم خطوطا رائعة يصور بها الإمام أحوال النفس الإنسانية، في اطمئنانها وقلقها، وحزمها وترددها، وشكواها ورضاها، وما يكمن فيها من عقد نفسية عجيبة، تحاول أن

تعوض عنها تعويضا، يهوي بصاحبها في مهاوي الهلكة والفضيحة. وكم يعجبني أيضا أن يصور في هذه الحكم معنى النبل في القوة، والسماحة في القدرة.

أو ليس قد جعل الهم والحزن، في الشك والسخط، والحزم، في العمل للمستقبل، ونسيان الماضي وأخطائه؟ وجعل التخريب النفسي الهدام، فيما يورثه الحسد لصاحبه؟ أو ليس قد جعل من التيه، تعويضا عن شعور الإنسان بحقارة نفسه، فهو يحاول بمظاهر تيهه وكبريائه أن يخفي شعوره بالحقارة؟

وقل مثل ذلك حين يحدثنا عن الأمن، والعدل، والخصب ويخوفنا من جور السلطان، وجار السوء، والمرأة البذيئة في عصر كانت مصائر الناس فيه مرتبطة بإرادة حاكم فرد.

وكم هو رقيق ولطيف حين يصر علينا ألا نبالغ في محاسبة الصديق فنخسره، والاغترار بعلمنا فننفضح، والشدة في مداراة الناس فنقع في رذيلة النفاق والممالاة.

وأخيرا يرسل الإمام مقياسه الدقيق لإنسانية الإنسان فيقول ما معناه: أن إيثار الحق مع ضرره، ومجانبة الباطل مع نفعه، وللعمل في حدود منطقنا وتفكيرنا هو شئ من الإيمان بل هو حقيقة الإيمان.

والخلاصة أن الإمام هنا إنما يضع بين أيدي الأحفاد خلاصة تجاربه، وكتاب حياته، مرسلا عبر الدهور، معلما، وفيصلا بين الحق والباطل. إنه في هذه الكلمات يبدو صاحب منهج علمي ورائد سلوك أخلاقي، وواضح قاعدة للعقلانية في ثقافة المسلمين، وداعيا إلى الله، بحق الله

عليه في الدعوة إلى الخير، ومحللا لجوانب خفية من عقد النفس الإنسانية والتواءاتها. ولعل اطلاع القارئ على مجموع هذه الحكم في مصادرها المذكورة آنفا أن يساعده على تكميل صورة الإمام بإضافة خطوط جديدة إليها.

بقية العلوم

الحقيقة أن ما بقي بين أيدينا من المخطوطات المحفوظة، لا يكشف بوضوح عن جوانب المعرفة الأخرى التي شارك فيها الإمام. ولكن هذا لا يعني أنه كان عنها غريبا، ومنها بعيدا، ولمعانيها جاهلا. فإن مجرد اقتناعنا بإنسانية الثقافة كما شرحتها أول هذا الفصل يفرض علينا أن نقول بمشاركته في هذه العلوم. اللهم غير الفقه الذي أخذه أنصاره عنه، وغير علم الأصول الذي نقلوا عنه قواعده وخطوطه الأساسية، وإلا الحديث النبوي الذي تواترت الروايات على وجود عدد كبير من ثقات الرواة الذين أخذوه عنه.

فقد روى جامعوا أخباره أن أربعة آلاف من هؤلاء الثقات قد رووا عنه الحديث.

أما أشهر هؤلاء الرواة فمن رجال السنة:

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي من الموالي، ولد بالكوفة، ونشأ فيها، ودرس على شيوخها، وهو أحد أصحاب المذهب الأربعة عند أهل

السنة. أما الذين ذكروا أخذه من الإمام فهم: الشبلنجي في نور الأبصار، والشيخ سليمان في الينابيع، وابن حجر في الصواعق وغيرهم.
مالك بن أنس: وهو أحد أصحاب المذاهب الأربعة ومن أبناء المدينة المنورة. وقد ذكر أخذه عن الإمام، ابن حجر في الصواعق، وأبو نعيم في حلية الأولياء، وابن الصباغ في الفصول وغيرهم.
سفيان الثوري: وهو من أبناء الكوفة، ناظر الصادق وأخذ عنه. وقد ذكر أخذه عن الإمام، أبو نعيم في حلية الأولياء، والشافعي في المطالب، والشيخ سليمان في الينابيع، وغيرهم. وهو في أهمية أصحاب المذاهب. فله مذهب معروف وطريقة كانت شائعة.
يحيى بن سعيد الأنصاري، وابن جريح، والقطان، وأيوب السجستاني، ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن ذكرهم أصحاب الكتب التالية: الخلاصة، والينابيع، والمطالب، ونور الأبصار، والصواعق الخ.
وأما أشهرهم من الشيعة فمنهم:
أبان بن تغلب: وقد روى عن الإمام ٣٠ " ثلاثين " ألف حديث. وكان متخصصا بالحديث والكلام.
إسحاق الصيرفي: وهو من بيت شيعي كبير روى عن الإمام الصادق وولده الإمام الكاظم رحمهما الله.
إسماعيل الصيرفي، أبو حمزة الثمالي، وجابر الجعفي، وبكير بن أعين، وجميل بن دراج، وحفص بن سالم، وحماد بن عثمان، وهشام بن الحكم،

والمفضل بن عمر، وغيرهم كثير جدا ممن وردت أسماؤهم وتراجمهم عند الكشي في رجاله، والشيخ في رجاله، والعلامة في الخلاصة الخ.

الخلاصة

لست أزعم فيما كتبت من هذا الفصل أنني قد وفقت إلى عرض جوانب شخصية الإمام كلها. فأنا لا أطمع في ذلك لسببين:

أولهما: إن الشواهد التي تركها لنا التاريخ قد خلت من كثير مما يجب أن يروى له. وأنها كثيرة بالغة في بعض مشاركاته وقليلة قلة فائقة في بعضها الآخر.

ثانيهما: إن هذا الفصل هو جزء متمم لكتاب لا شئ مستقل بنفسه.

وقد كتبت في حدود الضرورة الماسة. مع العلم أن شخصية الإمام كما ذكرت في المقدمة أحوج ما تكون إلى مؤرخين يكرسون له الكثير من الوقت، والكثير من الجهد، لجمع أخباره، وتنسيقها، والتعليق عليها. وفي رأيي أنه ما زال من الوقت متسع لتحقيق هذه الخدمة الجلي لتاريخ الإسلام والمسلمين.